المجلس الأعلى للثقافة

صحراء على حدة

عاطف سليمان

الكتاب الأول - قصص

المجلس الأعلى للثقافة

الكتاب الأول

صحراء على حدة

قصص

عاطف سعد سليمان



الإهـداء

إلـى :

نيسـان .

« قبل أن تستطيع الأعين الإبصار يجب أن تجمد فلا تستطيع أن تسكب الدموع ، وقبل أن تستطيع الأذن السمع يجب أن تفقد حساسيتها ، وقبل أن يستطيع الصوت إرسال الكلام فى حضرة المعلمين يجب أن يفقد القدرة على الإيلام وإثخان الجراح ، وقبل أن تستطيع النفس أن تقف فى حضرة المعلمين يجب أن تغسل قدميها فى دم القلب . »

من نصوص اليوجا

الجسد الذى طلع إلى الموت الأزرق

هكذا ، وبعد كل هذه السنوات ، خلع الجد حذاءه وقذف به من النافذة ، سحب من الصندوق القديم مسبحته التى لم يعرفها أحد قط بخبثٍ ابتسم عندما ناءت المسبحة بثقلها ، قطع الخيط فى مكان محدد وأدخل ورقة بيضاء بعدما ثقبها بعناية ورسم عليها وجه امرأة صغيرة بعيون عنيفة السواد ، ونظراتٍ لها خاصية الاختراق والحصار .

« آخر الخرزات ! »

قال لنفسه وهو يربط الخيط ويأخذمكانه على السرير الحديدى الجاثم فوق الصندوق :

« امرأة من حقيقة ، حقيقة خالصة هذه .. » .

تنهد وهو مستلق ، ويداه تنزعان عن جسده ملابس الخروج بكسل نشوان .

« ظلت طوال الوقت تنفث فى وجهى رائحة موت فخيم ، موت فاخر ، حتى ، لكأنى ، أووه .. لم تعطنى شيئاً ، يالعبقرية النهاية » .

كوّر ملابســه وقذف بها كذلك من النافذة ، مبقياً على سروال قصير ، وعندئذ أغمض عينيه بكفيه ، وراح يحدق إلى الموت .

* * *

أولئك الذين رأوه رأى العين لمرات عديدة تطرقوا فى الحديث عنه إلى كل شىء ، وذكروا أنه حمل عيوناً خُلقت خصيصاً لتصالح النساء ثم ما تلبث أن تخدرهن على البطء وتلقى بهن إلى أرق مجنون يقصف أعمارهن ، ويغمرهن بظلال شرسة لا يعدن منها أبداً .

وكان - هو - لا يذكر أنه تحادث مع امرأة واحدة دون أن يعصرا وراءهما شيئاً ما له رائحة الدماء الشاكية ، ويذكر الليلة البعيدة تماماً والتى حملته فيها المرأة الأولى إلى فراشها ، يذكر أنه ظل يحملق فى عينيها بربوبية صافية بهية ، ومن العينين كان يهاجم الذاكرة ؛ ينسفها ويدكّها ثم يعود فينشئها ويلهبها ، ثم يعود فيلغيها . علمته المرأة كل شىء وفى الصباح أعطته قرطها الذى ظل يئز حولهما طوال الليل وتركته يذهب .

فى الطريق ، كان له أن يعرف أنها ماتت ، ماتت كل هذا الموت النهائى ، وأن جنائزها ستبقى أبداً لتعطر أخشاب قلبه بكل الأحزان الملعونة والملتاثة ، فى هذه اللحظة بالضبط خطر له أن يعود إليها واعتقد للحظةٍ صاخبةٍ أنه هو الذى أماتها لأنها نامت دونه وتركته

وحيداً يفتش في البرد عن مداخل جسدها المطروح ، لكنه ، رغماً عنه كان يجازف بكل عقله حتى لا ينسى حممها وإشراقات جسدها الذى كان يلمع عبر الظلمة الكثيفة لمعان الجمرات الناضجة فى مدفأة آخر الليل عندئذٍ مد يده إلى وجهه وتحسس ملامح الامتنان والفرح ، تلك التى تبادلاها فى الصباح ، رمى خطواته بارتياح على الطريق ، وواصل السير .

فى ذلك الوقت كان الطريق خالياً ، وشمس منتصف النهار تعبقه بتضوع الحديد المحمى بالنار والتراب والكآبة ، والهدوء المتكوم يسفح صفيراً أصفر ، وثمة أشياء تشى بأن الليل لن يجرؤ الليلة على النزول .

كان يسير ، والمرأة التى ماتت تفاجئه بتدفقها إلى جواره : ساخنة وجسورة ، تلفح بناءات روحه بمرح الموتى المؤسى ، وتغزوه بإيقاع اشرأبت له حواسه التى انتفضت لتنزف كل ما تملك . كانت تمد يديها ، تلتقط قرطها من بين أصابعه المغيَّبة ، تليسه وترمح أمامه بعذوبة مهر وليد وتدور حوله بتحفزٍ نسوىّ مرعب فتشاهد من قرب كائناته المتلاحمة شوقاً وهلعاً ، ثم تختفى بعدما يسقط القرط فى كفيه مرفرفاً فى الهواء مثلما حمامة زرقاء ذاهلة .

* * *

على نفس السرير الذى حاول أن يموت عليه بعد نصف قرن ، شرع فى عمل المسبحة : خيط طويل وقرط المرأة يتدلى منه فيومىء له بيقين تفجر وجودها حواليه لتعود ملامحها - من جديد - فتجلد عينيه بندرتها وتصيغ عبر ابتسامتها العارية حالة رقتها الخطرة ، فصرخ فيها :

كيف تحملين كل هذا الفرح وأنت وحيدة !

ابتهلت إليه بصوت قدسيّ هائل :

أنت تعرف أننى لا أدرى كيف أنا الآن .

كانت عذوبتها تمنحه شرعية الشروع فى استردادها ، فما بينهما لم يكن قد اكتمل بعد ، ليبدو كما لو كان لم يبدأ أبداً ، إلا أنه قام إلى محاصرتها ضارعاً بذراعيه الملحتين بالرجاء والقدرة ، مختنقاً بعنفوان التساؤلات التى يقهرها خوفها من أن تخذلها برودة الأشياء التى صارت إلى حقائق ، لينسحب هتافه إلى الداخل كصراخ فأر صغير :

أيمكن إذاً أن تعودى ؟ !

* * *

وكان صمتها الذى يأبى أن يذوب فى هذا الصمت المرتجل يكشف له مالا سبيل إلى العودة منه حتى صار له كذلك أن يعرف أن كل اللواتى سيعطينه من أشيائهن سيُمتن بمجرد أن يفعلن ذلك .

25 نوفمبر 1983

أخبار دياب الأولى

مرةً أخرى ستنفتح له ، الليلة ، بوابة السجن الرئيسة . كان الفجر على مرمى حجر من الآن ، وكان له أو عليه أن يعد لمغادرة (المكان) .

راح يلملم حالته في هدوء ؛ مغامراً بارتياد ذاكرة انقسمت على نفسها ، وصامداً في مواجهة شتاته المروّع ، قال « .. عمدت إلى روحي أعبئها ، وكانت حزينة » . اعترف سجناء الزنازن المحيطة بأنهم أحيطوا علماً ، ومنذ البداية ، بكونه بريئاً ، وقالوا « اعتقدنا ، عادةً ، أنه ميت .. ، كان يحيا كقتيل ! » . فرغ من إعداد حقيبته ، ثم مسح وجهه بالماء . استلقى على ظهره رامياً برأسه على الحقيبة ، ومجرباً من جديد انتظاراً محايداً . جاست نظراته سقف الزنزانة بوقارِ التاث بمسحة صوفية عارمة ، قال فيما بعد عن هذه اللحظة « من تلك اللحظة وللأبد ، رغبت لقلبي إيقاعاً جديداً ، لا أعرفه ! » ، وقال عنها بعد زمن كامل « كنت أستعيد مقدرتي على التألم .. » .

عندما سمع خطوات الحارس ، وهو يقترب ليفتح له باب الزنزانة كاد يعرف أن هذا الرجل يعاني من الأحلام المشبّحة وأنه قضى ليلته

مؤرقاً بعدما أصبحت الكوابيس تجتاحه أيضاً وهو مستيقظ . تألق داخله ذلك الشعور الساحق بسيطرته على الأشياء من حوله بصورة موجعة ومسرفة ، وحين انفتح الباب - وأطل الرجل دميماً ، معتماً محيياً ، ومخبراً إياه بحلول ساعة الإفراج - سأل بلهجة نادرة :

- الآن

أجابه الحارس :

- الآن .

قال الحارس « سمعت صوتاً غير صوته ، ولم أفهم شيئاً » .

* * *

كان الحارس شيخاً طيباً يحمل جلده دائماً دملاً في مكان ما وتبدو ملامحه في صباح الأيام كما لو كان غريقاً عاد لتوه من مياه قذرة . وكان دياب ، الشاب النحيل ، والذى حمل حقيبته ووقف على باب الزنزانة المفتوح انتظاراً للافراج عنه ، يرى في الحلم نفسه مطارداً أمام عدد هائل من القطط السوداء الضخمة . ادعى الحارس أنه سمع صياحها ، وقال انها لم تكن شريرة ولذا لم يشأ أن يوقظ دياب ، خاصة أن آذان الفجر طغى على الأصوات ، وبددها . بينما حكى دياب أن الآذان اختلط بحلمه كزغرودة دامية صاغت له صداعاً فتاكاً وقال « شوهتني الحيوانات بعد ذلك » .

كان دياب ، الذى دخل السجن بتهمة تقبيل نساء علانيةً فى الطريق العام ، يفيق من سنته ، ويتجاوز العنبر مع حارسه . فى أول الممر كانت تطالعه السماء من حيث تركها آخر مرة : موبوءة بكل الحسرات ، وذليلة .

مضيا يتقدمان ، قال دياب « شعرت بأنى أسير وأسير ، ولم يكن ثمة شىء يؤكد ذلك ! » ، وقال الحارس « فى السجون ، لا نعتاد بذل المشاعر ، إلا أنه كان يسير كحصان ويبكى بمرارة ، كان يدييننا .. » وقال « لم أسمعه يبكى ، ولكنها الحمى ، كان محموماً كنبى ! » .

* * *

فى حجرة المكتب الرئيسة انتظره الضابط الذى طالما استدعاه ليلاً ليحكى له مغامراته النسائية ، وطالما أعاق تنفيذ الإفراج عنه من أجل ذلك . قال الضابط « كانت أحاديثه المجنونة تؤلم أسرارى .. » ، وقال « ظل يفصح عن امرأة تشبه زوجتى حتى طردتها .. » ، قال دياب « تلك البلاهات المخترعة كانت تمنحه السلام ! » .

كانت الأوراق كلها جاهزة ، والبوابة الأخيرة تنفتح له بما يكفى لكى يخرج ، مد إليه الضابط يداً رسمية ، مستقيمة ، قال دياب فيما بعد « صافحنى ، فصافحته . » .

* * *

اخـتلفت الروايات بعــد ذلك عن دياب ، فـأنكر الســجناء الذين عـاصروه أنه كـان مـوجوداً ، قـال بعضـهـم « أمـا السجن نفسـه فلم يكن موجوداً ، لقد هُدم قبل هذا التاريخ .. » ، ونفى الحارس أنه رآه ، وقال هازئاً « شخص عاش فى زنزانة بمفرده ؟ ! ، لم أشهد أبداً ترفاً كهذا .. » وقـال الضــابط « كـان مـوجـوداً بكل تـأكـيـد ، ويمكنكم البـحث عن مطلقتى ، وسؤالها . » .

غـيـر أن أحداً لم يذكر أنه رأى دياب منذ أن اجتـاز بوابة السـجن رغم ادعـاء البعض بأنهم شاهدوه - بعد ذلك - فى أحلامـهم وهو يخلب الزوجات .

25 مارس 1984

ريثما تلتئم الوردة

وكان ليل ، وما كنا نتصور جميعاً أن أحدنا سوف يتحمس لفكرة التسرب إلى دار « نصرة » إلا أن أحداً لم يعترض معولاً على اعتراض بقيتنا ، اختلسنا الطريق ، وكان ليل . دون أن نعنى شيئاً شرعنا نسير بهيئة من تعاهدوا على استعادة شيء فقدوه . تدريجياً انطفأت غمغماتنا لنعرف - حين سكتنا تماماً - باستحالة أن نأتى أى فعل سوى مواصلة السير بالحالة التى بدأنا بها ، كنت أعتقد أننى الوحيد منهم الذى أغمض للسير عينيه أكثر الوقت مكتفياً بالتلاحم معهم والانسجام مع هيئتهم إلى أن صاح أحدنا لما اقتربنا من أحد الحقول الموحلة .

- غريق !!

كان ليل ، وكنا قد فتحنا قبل صياحه عيوننا ، وانتظمنا : أحدنا وراء الآخر حتى تجاوزنا الحقل الموحل فعدنا للسير بهيئة من تعاهدوا على استعادة شيء فقدوه .. ، وكان ليل ، وكان صيف ، والذى صرخ قال فى اعتراف حلو « أنا لمستها مرة ! » ، تخلينا ، يا ألله ، عن تطيرنا بهيئة سيرنا إذ انخرطنا فى حالة اللمسة ، فأردف الذى لمس « تكهربت .. وخشيت أن تلذ منى .. ولم ألمسها ثانية ... » .

كنا قد صرنا على مسافة من جسم القرية تكفى كى لا يصفو منها غير حوارات كلابها ؛ ثنائيات . ثلاثيات . وكان ليل ، وكان صيف وكان ظلام ، وأحدنا الذى حملت جمجمته فهرساً دائماً فذاً لأصوات الكلاب والذى كان يلبس قميصه المعطر داكن الخضرة ، لمعت عيناه فجأة ونطق « سأعود أنا .. » .

ورجع .

ظللنا نرنو إليه حتى تيقنا بأنه لم يخطُ معنا هذه الليلة خطوة واحدة . كان ليل .

* * *

عبر غلالات الباب الواطىء ، انسل التوائم الثلاثة داخلين ، ليكون على كل واحد فيهم أن يكتشف أن روحه هنا أطهمت . أمه هنا تهادت . أباه هنا انكفأ على وردته . هنا كان هنا ، هالله هالله . كما كان عليهم كذلك أن ينتظروا أطول مدة ممكنة ولا يعرفوا السبب الحقيقى الذى جعل رابعهم - بعدما مروا بالحقل الغريق - يستدير بغتة ، ويقفل راجعاً دون أن يتبادل معهم إشارة واحدة ، وحتى أنهم عندما شاهدوا ظهره ، حين ابتعد قليلاً ، رأوه يسير كما لو كان لم يعكس الطريق . رأوه ولمسوا بأصابعهم النسمات الحميمة التى رشرشها قلبه بنفس النكهة التى كان يكفيهم فيما بعد أن يتذكروا العمر الذى أنجز فى قطرة واحدة ذات يوم حتى يعاود قلبه إطلاقها .

كان التوائم الأربعة ذوو الاثنى عشر عاماً ، والذين أمضوا أكثر من ثلثى عمرهم فى ثياب وأسماء الصبيات ، قد نالوا من أبيهم ترخيصاً بأن يقضوا حوائجهم كيفما استطاعوا ، ولكن بشرط واحد ، قال « شرط ألا تقحموا البيت فى مشكلة من هذا النوع . » .

ثم انسل التوائم إلى الظلام الفضى ، الذى التصق بهم التصاقه بأكثر أشياء نصرة نسياناً، والذى أوعز إليهم بكل ما تذكروه أمام أطبائهم النفسيين الخصوصيين فى جلسات الشيخوخة المسائية المطولة « كان الظلام . أبناءنا الحكماء . يلفنا كمرايا سوداء قاسية » يتوقفون ويواصلون « أو نستطيع خداعكم ! كنا نفكر فى الرجل الوحيد الأكثر تاريخية . أبناءنا الحكماء . الذى لم ينظر نجاسته قط ! » . وكان الأطباء يهمهمون « لقد ضعتم . آباءنا . لقد ضعتم . » . بينما هم يواصلون « وماذا كنا نفعل . أبناءنا الحكماء . لأعضاء يقظة كلت البحث عن تاريخ آخر . ماذا كنا نفعل » ، والأطباء يهمهمون « لقد خسرتم . آباءنا . لقد خسرتم » ، وهم يواصلون « قولوا إننا لن ننتهى . أبناءنا الحكماء . قولوا ذلك » . والأطباء يقفلون الجلسات ويهمهمون « غداً . آباءنا . غداً . » ، ثم يطفئون الأنوار الخافتة وينامون على أسرة اعتراف مرضاهم الوثيرة ويهمهمون فى أحلامهم « لقد جننتم . آباءنا . لقد جننتم . » ولا يستيقظون إلا فى بدايات المساء التالى « هيا .

آباءنا . هيا . » فيواصلون « كان الله يتفرج علينا بفضوله السرمدى الأبدى . أبناءنا الحكماء . ولم تكن لنكف » فيهمهمون « لقد خَرفتم . آباءنا . لقد خرفتم » . ويشخّصون بحروف مهجورة جميلة منمنمة : فسد الآباء . يا للخراب !

ثم انسلوا ، وللوقت ، كانوا لا يعرفون أين تنام حتى عثر عليها أحدهم نائمة فى الشباك ، ولساعتين لم يفلحوا فى إيقاظها إذ بقيت رأسها مشيرة دائماً صوب الشمال مهما غيروا فى وضع جسدها وعندما عبثوا بها ، وعروها ، وجدوها حائضة لخمسة أيام . لم يلتفتوا للأمر وشرعوا فى خلع ملابسهم ، عندئذ بدت وكأنها على وشك التلاشى .

قال أحدهم « نفعلها معها وهى نائمة .. » كان يمكنهم لحظتئذ أن يروا وجهها ، الذى حمل على مدى العشرين عاماً الأخيرة تعبيراً متوحداً مقتبساً من وجوه الدود ، يكتسى ، لمرته الأولى ، بملامح امرأة تمارس نعاسها بسلاسة البحار ، غير أنهم كانوا لايدرون كيف يتصرفون فراحوا يعدون الأرقام ماعدا الذى أصر على أن يفعلوها معها وهى نائمة ، فراح يدفعهم إلى ذلك دفعاً « ما الفرق ؟ .. لا فرق .. » ، فقاموا وأخذوا يرشونها بالماء حتى أصبحت طافية فى دم حيضها المهرق الذى كسره الماء . لم يلحظوا شيئاً فى الظلام ، وقال الذى دخل ليشعل

المصباح « أراهن أنها ميتة ! » ، ليرد عليه الذى أصر على أن يفعلوها معها وهى نائمة « نائمة . وستصحو إذا بدأنا .. » . الثالث ، الذى حرق وقته صامتاً مفكراً فى ضرورة الإتيان بشىء يمكّن المرأة من التمييز بينهم ، انفجر « أنت !! ألن تفهم أن هذا حرام !! » ، قاطعه صوت الذى دخل ليشعل المصباح :

– لا شىء هنا يصلح للإشتعال !

– لا يهم .. نفعلها فى الظلام ..

– اعتقد أنها ميتة .. ، ألستما خائفين ؟!

– اخلع المربوع الصغير ، وأشعله .

– تعال ، إننا لسنا خائفين ..

–أين المربوع .. لا يوجد مربوع !

– اشعل أى شىء عندك .

– ماذا لو كانت ميتة ؟ !

– نفعلها معها وهى ميتة .

* * *

وللوقت ، كانت الساعات الذهبية الثلاث تومىء إلى ليل الثانية صباحاً ، وفى مكان ما كانت شقيقة الذهب الرابعة تكرّس ذلك

موسيقياً، والذى دخل ليشعل المصباح ، عاد بفانوس صغير مضاء ، قال الثالث ، دون أن يتوقف عن تفكيره فى الهرب إلى أى مكان لا يقتحمه فيه ثلاثة أشخاص بشبههم النهائى له ، « انظرا .. ، بدأت تفيق .. انظرا » ، ولحقه الذى عاد بالفانوس « انظرا ! » ، ونثر أمامهما مجموعة صغيرة من وريقات البنكنوت عثر عليها مغسولات ومعلقات على حبل الغسيل كأى مذنبات فى الأبد . وللوقت ، أفاقت نصرة لتذكر لهم أن « واحداً » قد منحها جرحاً نافذاً فى أحد أكثر أجزاء جسدها رقة وسرية ، ونوّمها كى يكفل لنفسه متعة عشر ساعات غير منغصة وأنها لهذا السبب ، ولسبب آخر لم تذكره ، لا تستطيع لهم الليلة شيئاً، وأنه يمكنهم المعاودة بعد أسبوع ريثما يلتئم الجرح ، وطلبت أن يأخذوا وريقات النقد لأنها ، كما قالت ، لا يمكنها أن تغسلها مرتين .. ، ومكثت تحدثهم بلهجتها المتناومة تلك التى لم تفقدها أبداً ، بل والتى تحدثت ابنتها الشرعية والساحرة حقاً بها بعد ذلك وفى نفس المكان وهى مُسندة رأسها إلى ذات الحائط ومتناومة إلى الذى ، قبل عشرين عاماً ، لبس قميصه الأخضر الكريم وأنصت كعادته إلى صرخات الكلاب ، دون أن يخطر ببال أحدهما ، وهما يأخذان كل الأوضاع المرعبة الرائعة ، أن ثمة شخصين آخرين كان قدرهما غير الحتمى منذ بضعة آلاف يوم ، وقبل سقوط الندى من إحدى سماءات صيف فيروزى بعيد أن يُنجزا بالحذافير كل ما يُفعل الآن !

مايو 1984

بادرة والأوقات المغلقة

إننا على أعتاب لقاء . بدا عميقاً أن أحدنا قد صار على وشك الوصول . كنا – طوال ماض- نجرب ، ونختبر كل الاتجاهات الممكنة ، العاصية، ومرة لم نشعر أننا تواجهنا، أما الآن، بعد قليل ، فستلقانى ، وألقاها . إنى لأشدها إلى مكانى بوسيلة إنسانية مبهمة وعذبة . أناديها بسرها : بادرة . كانت صيحتى المؤمنة كافية كيلا يكون الوهم كلياً ، إنى ألتقطها الآن . ألتقطها ، وإنها لتجىء . أخيراً . إنها تجىء. حين اكتمل الوجه ؛ ابتسمتْ . وحين تدفق دمها صار بإمكان الفانين لمس جسدها أو الارتطام به ، « دون أن تمسنى . من فضلك ! » قالت ، وانتهينا عند نومها المترامى والمكدس باليقظة . صار أمام الباب حاجز واطىء ، فحديقة . « لك ! » وهبتنى ، وهمست « نائمة أنا ، من فضلك ! » أغلقتُ باباً خلفى ، وتوحدتُ مع ورطتى الأزلية : فى أى جحيم داس ذهنى هذه الأزهار . « أول أزهار الكون تحت وطأتك . لا تمسنى ! » قالت . كنت أعرف أنها لن تكف عن محادثتى من نومها ، وكنت كذلك أعرف أنها ستصحو بعينين زيتونتين شبقتين ،

« دون أن تنظر إليّ . من فضلك ! » ستقول ، ثم تخترقنى وأخترقها ، « دون أن تجرؤ ! » سنكتب فيما بعد . كانت حديقتها لانهائية ، وقدماى اللتان تجيدان السير ستنصتان للنداء : « دون اشتهاء . من فضلك ! » ، فأعود لأجلس على أطراف نومها جلستى القديمة وأغنى لنفسى ، فتهمس « دون تعاسات كبيرة . يا حبيبى . » ، وتصحو . تصحو بادرة بثيابها المنحسرة فى غيرما اكتراث ، وتبدأ فى ممارسة أخطائها اليومية العادية . « لا تنادنى باسمى ! ، من فضلك ! » تضرع برقة المحاربات المتوحشات ، وتمنح جبهتى يدها ، « هذه يدى ! ، من فضلك ، وهذا أنت ! » تكاد تنطق ، وتكاد توقف نبضها عن جبهتى ، فتتعبنى يدها ، وأنام دونها ، فتودع يقظتى بقبلة يسيرة ، « لستُ باردة ! ، من فضلك ! » وتشعل دخانها المحشو بالخدر على حافات نومى ، ويكون علىّ أن أسيّج ضدها أحلامى ، « ياخيبتنا ! » ، فتوقظنى وتغرز فى عينى عينيها الزيتونتين « أنا عذراء ! ، من فضلك ! » ، وتتلقفنى من النوم ، تلفحنى بحالة صفواتها تلك التى لم تكن تعنى لى دائماً سوى أن غائباً ما هو غائب لا يزال ، وأن شيئاً كذلك سيُلقى بين يدىّ : « نادنى : يا أمى ! ، من فضلك » تبكى بادرة ، « يا أمى ! ، من فضلك ! » تضحك بادرة ، وأناديها « أماه ! » ، تنتشى ، « إمنحينى شفتيك » ، تمنحنى ، ونحيا فناءنا الدائم .

- يا عروسى المُلهَمة !

- يا آهه ، يا أبتاه !

حقيقيان نحن الآن . حقيقيان نقطع آخر عشر خطوات إفريقيات لنا باتجاه الشمال ، متخاصران حتى البحر . والبحر يغص باشتعال الأجنحة الرمادية والحمراء والبيضاء حتى بدا لى أنه سيخفق بها ويطير . وشهقت بادرة فى ذات اللحظة :

- هذه الطيور تحاول المستحيل !

كان المشهد البحرى شاهدنا بسمواته الشروقية الحمراء ومشاوير طيوره الطيبة ، وكانت بادرة تصف لى كيف يتحول البحر على جسدها إلى نمال صغيرة تزعجها وتشخنها . قلت لها :

- موجتك ! ، ألن تلمسيها !

- كلا ..

- بأصابع قدميك فقط ..

فتخلع بادرة كل ثيابها لتتقدم للبحر قدماً يلعقها مرةً ويعطيها نماله ، ولتبدو لى كما لو كانت عارية بدون سبب ، فتجاوبنى « لم أتعر من أجلك من فضلك . لم أفعل لك هذا من قبل » كنت أخشى اللجوء لذاكرتى ، فقلت كيفما اتفق :

- بل تفعلين هذا دائماً !

- ربما ، لا أذكر .

هكذا ، كان نصيبنا من الصباح بحر ، بحر هو غدتنا الروحية ، وهو الوجه الوحيد الذى يُسْلم بادرة إلى أحزانها كلما التقاها ، وتشرد له بادرة :

- إننا نتنافس على إضاعة شىء ما !

وتنفصل من شرودها له ، لتشرد لى « ربما كان الأمر أنى لك تعريت ، لا للبحر ! » وتلملم بادرة حاجاتها بإعتداد من ستقفز إلى الماء بعد لحظة لتبقى فيه حتى تذوب ، إلا أن البحر كان قد غيّر صفتها من صيّادة وثنية إلى أرملة كونية تفتنها لبعض الوقت فكرة الإخلاص لشرف فقيدها ، فغادرناه إلى قلب المدينة . كان جسدها يعج بالفرح ، كفها يحارب كفى ، وقبلاتها الصغيرة المكتومة الحذرة تجيئنى فى أكثر شوارع المدينة ازدحاماً وغيرةً ، « لن أكف ! ، من فضلك ! » تهمس ، ونعبر الشارع إلى حائطنا الخاص ، « سأخونك دائماً ! ، من فضلك ! » تهلل ملامحها ، وتسبقنى إلى الدرج ، تطلع ، تطلع ، وتطلع .

* * *

كان المكان عالياً فتستطيع أن ترى البحر ولا تسمعه فيملؤك إحساسك بالصمم ، تشد الستائر كلها ، وتنفى البحر بحركة واحدة

فيملؤك إحساسك بالجحود ، وتفاجئك بادرة بعد لحظات قليلة : « نعود إلى البحر ، من فضلك » ، وأنت لن تصبر على اعتبارات الأشياء وعسكها فتسأل نفسك عن المصيبة التى لحقت بصوتها ، وتقول لها إن الأسفلت محتقن بخطوكما ، وإنك تتوق لأن تنام وحدك كى تهدهد صخبك ، فتأتيك بادرتك لتنيم رأسك على باطن كفها ، وتهرول بخطوات دقيقة ، تحضر الماء والعطور ، وتغسل لك قدميك ، تقشر عنهما أزهار حديقتها المدُاسة ، وأنت لا تعرف ماذا حدث بعد ذلك ، حتى أنك لم تسمعها وهى تتمتم لعينيك المغمضتين « أنا المجدلية ! ، من فضلك ! » ، وتسويك المجدلية على فراشك ، وتسوى نفسها عليك ، « والآن . أخونك معك ! » تخونك معك نبيتك المفرودة بين ذراعيك ، وتختلط الأشياء عليك فتهمس لها بيقينك اللحظى : « فعلنا هذا من قبل . » ، فتنفى لك يقينك ولحظتك « أووم ، لا ! لم نفعل هذا من قبل . » ، وأنت لا تنكر أنك فكرت فى أن تطرحها عنك ، فهى تغتصبك الآن وتخونك ، فتهم بأن تحدثها عن البحر الذى كانت تبغى عودةً إليه ، فتبادرك « لا أعود إليه . من فضلك ! » .

وتسكت ، أنت الآن تسكت لأنهم تحدثوا دائماً عن خيالك ، واختاروا له أوصافه من القاموس ، وأنت لن تملك الوقوف ضد القاموس ، ولن تستطيع أن تزهو بغابتك بمفردات لم يعرفوها . وتسكت .

أنت الآن تسكت لأن مجدليتك ساكتةُ لك ، تفكر بقتلك ، وبالسفر في رحلات دينية إلى بلاد حارة لتبحث عن شبيه لك ، إنها لن تكف عن الإيحاء إليك : « أريدك مرتين ! ، من فضلك . » ، وأنت ، أنت لن تنكر أنك فكرت بقتلها لتتحاشى إلى الأبد كلمات قلبها « هذا انتحاري . أين انتحارك . » ، وأنت لا تستطيع الآن أن تذكر أنها ظلت طوال ليالٍ كاملة تتسلل من بين ذراعيك وتجلس على الأرض لتكتب رسائلها إلى أشخاص كانوا يعرفونها . تكتب إليهم كتابات شفرية وتوقع باسم بادرة ، وتلبس أقسى ثيابها زرقةً ، وتتزين ، وتذهب بعد انتصاف الليل إلى صندوق البريد عبر شارع خافت شبحّي الإضاءة . تستسلم الزوجات على جانبيه بمجدهن الليليّ الموسوم ، كانت تذهب وتعود لتندس في فراشك حزينةً وبديعةً . إنك لم ترها وهي تنزع الليل عن صندوق البريد وعن يدها حتى تعرف أن السحر وحده كان يمشطها لك في ليالي رسائلها البوهيمية ، وكنت تنال كل وجباتك السامة عبر صباحات فاتنة استحسن العالم أن يخصصها للتثاؤب في الصحيفة قبل أن يدس أعناقه في الأربطة .

وبادرة التي لم تكن تقرأ أبداً الرسائل التي تصلها ، ولم تقل مرةً كلمة لحامليها ، كانت تنفق أوقاتاً طويلة في ترتيبها وتحزيمها دون أن تفكر بفض رسالة واحدة . وباتت قصتها مع رسائلها في انتظار اكتمال

ما حتى بدا لك أن أحدهم سيرسل هيكله العظمى يوماً بالبريد إلى دولابها حيث ستزيح له مكاناً وتضعه وتخبرك عندئذ « إنهم عشاقى ! ، من فضلك ! » ، وأنت تكاد تعرف أنها هى التى ترسل لنفسها كل الملغزات المحزونة المنبوذة ثم تتسلمها بطيبة الأمهات المنعزلات ، وأنت . أنت لا تعرف أبداً .

* * *

كان الموت يلاثمها إلى أقصى الحدود ، وهى لا تموت . لا تحمل حدساً محدداً عن موتها . ذكرتْ فقط أنها ستموت ضمن عدد كبير من الناس ، « سنقضى متلاحمين ! » تشوف ، وتنزع للتعامل مع جسدها بحيادية مشوْقة . كانت تجرب موتها ، وتصل إلى حدود مرعبة تنزع منها لصوتها النبرات الوحيدة المُفصحة عن رائية يائسة ، وتمنحنى عندئذ نفسها بمرح وطفولة لتسيير الأمور وفق منطق فذ حتى نهايات لا نهائية وسط ضحكات حقيقية مُنقذَة فى لحظتها النادرة ، ونسكر ، كانت بادرة سكيرة جيدة ، تتوقف قبل حدود الهذيان والانتحاب لتثرثر كعادتها ، كنا نتحدث عن أشياء لم يتحدث عنها أحد لأنها بالذات خُلقت للتو بصيغتها الأثيرية القديمة . القديمة . المهجورة منذ بدأ العالم يعى أنه يسير ، وكنا ننشغل أحياناً فى إحصاء الخيوط الناشزة فى شراشف ثوبها ، نرتل الأرقام بصوتين يرتعشان لأن أحبالهما الصوتية لم تهجع

بعد من المضاجعة ، وبادرة ، فى لحظات السكر الفريدة تعيد ترتيب كل شيء بصورة جارحة ، صورة عاقلة للمرة الصفرية .. كأن ينحنى البحر - مثلاً - إنحناءة جسور يخلف لنا بعدها مكاناً زاخراً بالرذاذ البنفسجي وفراغاً أبيض شاسعاً وهدوءاً ينتمي للموت الذى يكرهه العالم .. ، « لا أشجار أيضاً ، ولا بحار ، ولا أجراس ، ولا وسادات ، ولا سجلات ، ولا مرايا .. ، ولا .. » تفيق بادرة ، « فلنذهب ! ، من فضلك » وتحمل معها الكتب الأثيرة لديها ، تلك الألواح الغامضة التى سيرثها آخر عشرة أنبياء لحظة يقفلون أبواب الكون فى ذات نهار أخير . كتب بادرة التى بشرت باللعنة حتى النهاية ، والتى لم تُفهم حتى الآن لأن أحداً لم يكتبها أبداً بل كان هناك من يندس دائماً فى اللحظة ويسجل ، يعصر الموت والسحر والحياة حتى يُدْمِهم ؛ ويسجل . ونحن الآن نستطيع الذهاب إلى حيث البحر يعُقف ناشراً وراءه الأرض الحريرية الملتهبة بكل الاظلامات المجبولة من الجحيم حيث يجوز للرب أن يجرب مرةً إغماض عينيه عنا فنشتعل أو نحترق أو نلتحم . نستطيع الذهاب . كل ما علينا هو أن نصغى إلى القانون الجميل الذى يعمل الآن فينا ، والذى يحتم إختصارنا إلى ناجٍ واحد فقط . وبادرة التى هتفت للذهاب ، تنام تنام تنام الآن لأن النعاس يغالبنى ، وشعرها البنى المتماوج لا يزال ظافراً بحريته ويقظته ليؤجلنى لحظة تكفى لكى تفترق من جديد ، تنام بالطول الفارع والثقل الثقيل تدفىء الشرارة المختبئة بين ثدييها

والمُختلسة من أول نار أوقدت ، « لست نائمة ! ، من فضلك ! » فأعرف أنها تهيئنى للحكايات من جديد ، الحكايات التى تربصتُ بها دائماً لأرى من أين تبدأ ، وبادرة لم تكن تبدأ لأنها تسبق البداية بعنفوان لم يُمنح إلا لميتة تسيدتْ الموت ، .. وتحكى عن جدها ، كانت تغسل له جواربه وهى فى الخامسة ، وتحكى أنه كان يمتلك ملايين الجوارب ، وأنها الوحيدة ، فى منزل امتلأ بالنساء ، التى أُوكلت إليها المهمة كاملة لتنتهى فى الوقت المناسب وتنفصل إلى جدها فى حجرته الهوائية لتغنى له أغنياته المفككة المفضلة دون أن تعى شيئاً مما تغنى . الأغنيات التى لم تُغن أصلاً إلا بصوتها فى تلك الأمسيات البعيدة التى كانت تحرك فيها إصبعها ، نفس الإصبع الذى يمتلك الآن خاصية شطر الأرض كى تلتحق الحكايات بنهاياتها السحيقة ، وجدّها فى الوقت جالسٌ إلى طاولة الطعام وسط العائلة الكبيرة ، وهى بجانبه ، ولا يلبث يرُعشّ ملاحته فينتشر غبار الملح على طعامه ، وهى تقلده بينما لا أحد يراها سواه ، ويسقط الملح على طعامها دفعة واحدة ، فتوزعه ، وتتذوق طعاماً لا يطاق ، ولكنها صامدة وهو يراقبها ،فتأكل الصخر كله وهى تتمنى أن ينهرها الشيخ لتكف ، ولا ينهرها ، ولا تكف ، ولا تمرض ، حتى يلمحها بعد دقائق منزوية تبكى صامتة ، فيبكىَ ، وتمرض .

وتصنمت بعدئذ لترنو إلىّ كما لو كنت أنا الذى إنقطع إلى الصمت ، متلاشيةً كما لو كانت ستحل على صليب « موعد البحر .. من

فضلك ؟ » تصدر حكمها بعد قليل ، وتجزّ أطراف جدائلها بسكين مطبخ ، وعبر الفجر الدافيء تنزلق إلى الشارع . أمد رأسي من فضاء النافذة ، أراها كائناً ليلياً غير حقيقي تشي خطواته بأنه ذاهب إلى البحر كي ينيم روحه في مأزقها ، وأرى خطواتها أشد زرقة من تلك التي يذهبون بها إلى البحر كي يمر عليهم الزمن بطريقة أخرى . كانت تبتعد عندما لم أستطع مقاومة يدي وهي تشد الستائر حتى تخلص عيني لنومها المتدفق ، الهائل . كانت تبتعد . لم أستطع .

* * *

ووحدك ! . أنت الآن وحدك لأن الاتجاه المفضي إلى الموتى لم يُبدع بعد ، وأنت ، أنت ممتلىء بيقين أنك مغتصبُه ذات مرة . يقين ! . أما الآن ، فليس ثمة اضطرار لهذا لأنها ستدخل بعد قليل ، بعد أن تمرق تحت حائطك دون أن ترفع بصرها إليك كما لو كانت عائدة من رحلات صندوق البريد ، وستفتح عنك بابك لتبدل ثيابها دون أن تجد الضرورة لمحادثتك ، ستراها غريقة مكتملة الغرق ووجهها متشبث بالتعبير الأخير الذي تخيلتَه لأنهم نبذوه على كل اليابسات التي ارتادت ، واتهموا جثتها بالغرق ، فسئمتْ ، وعادت إليك ممتنة لك بالتعبير الأخير ، ومفاجئة وحدتك بأصبع دافيء يلملم أكياس رسائلها من على أطراف سريرك ، « ميتةٌ أنا ، يا حبيبي ! » تهمس ، وتتلو عليك أخبارها ،

وأنت ستعجب عندما تعرف أنها لم تذهب إلى البحر ، وأنها لم تعد إلا بغرق قديم ، وأنها قضت اليوم فى قطارات الدرجة الثالثة ، تنتقل من واحد إلى آخر حسبما اتفق لتغرس عينيها فى عيون المسافرين ، « استجبتُ إلى كل الإشارات التى دعتنى للتعارف ، والمحادثة ؛ إشارات الحد الأقصى ، المنبعثة من الروح فقط .. » ، وتطلعك على قصاصات الصحف التي دونوا لها فيها أسماءهم ، وعناوينهم . أحدهم ، وهو الذى ترك لها كل عناوينه المحتملة المقبلة ؛ عقد معها موعداً يحل بعد عشرين سنة فى أحد أماكن الانتظار التى بدا أنه لم يكن يملك ما يدعه يشك فى أن الوقت مُوجدها .. ، « . . ولكنه لم يذكر السفر بكلمة واحدة ، فقط ، كان جميلاً إلى الحد الذى يجعل السفر حتمياً .. » ، وأنت لا تكاد تتعرف على خطك وحروفك فى قصاصات المسافرة العائدة حتى تكتشف أنهم سجلوا لها كل عناوينك السابقة ، فيعتريك إحساس بأنك بُعثرت ، أولُملمت ، وتسألها فى نفسك : كيف ستكتبين إذاً إليهم ؟ ، وهى تستطرد « .. لن أكتب . لم أعد أحداً بشىء .. » .

وتذهب بادرة لتجلب الموقد الصغير ، تضعه بينكما ، وعلى اللهب الأزرق تنضج لك قهوة الصباح ، وقهوتها القاتمة ، ثم تتمدد أرضاً ورأسها فى ارتفاع اللهب ، وتخرج من جيوبها تذاكر سفرها الكثيرة ،

تشعلها واحدة واحدة ، وتنبثك مع إكتمال الرماد « وصلت من سفرى . » ، وتهم لتجلس ، فتسقط ، تذكرة أخيرة لا تمتد لها يد من الرباعى المدلى بين الأرجل التى اعتمدت أنفسها قرفصاء لقرفصاء ، ويهل صمتكما الصباحى الأول المثقل بالطلاسم الخلابة التى لا تلبث تتخلق ، وتنذر بقدرات لا تحتمل ، ويتكوّن صوتك :

- تذكرتك ! ، ألن تشعليها !

- كلا ..

وتشعلها .

وأنت يغرى الصمت فوضاك ، ويخطر لك أن رماد التذاكر الكرتونية ليس إلا رماد سجائرها القديم وقد عاد فجأة ، وتتعابث فيك الأوهام باللا أوهام ، وتتوالد فى اتجاهات مرصودة وغير مرصودةٌ ، وتخلق كل ما سوف تراه فيما بعد إذا كنت ستعيش عشر مرات أخريات . ويزف الأزيز . ثمة أزيُزله شحنة مُرجفة . يمتلك ثقله المادى . لا يُسمع . لا ينفى السكوت . السكوت الذى لن ينكسر لصوتك - ثانية - حين يلتئم بالمشوشات :

- أنتِ لم تسافرى قط !

- وأنتَ ، أنتَ لم تنم قط !

وعندما تلتقي عيونكما ، ستهبط معك ، دون أن تبيح لنفسها المروق من أمام المرآة لئلا تتورط فى انتزاع نفسها فى نهاية الأمر فيختل شيء ما ، ويلتقطكما الطريق المحاذى للبحر ، وينساكما بعد لحظة ، فتمشيان ، تتحاشيان أن تتماسا . تتحاشيان ألا تتماسا . تتحاشيان انحسارات التجسد وجساراته . تتحاشيان . فتنتهيان إلى الخطو بإيقاعي مدينتين لدودتين بينما تتناوبان الاختناق ببحر واحد متوحد . تمشيان والبحر على يمين . تنحدران . تطلعان . والبحر على يمين ، تمشيان ، والخطوات تبذل نفسها مشوشة ، زرقاء ، نفاذة ، نفاذة إلى حد لن يكون بوسعكما إدراك كماله بينما يكون مقدور المتنزهين على الشواطيء أن يشاهدوكما تسيران بقامتين مشدودتين أكثر مما ينبغي ، وتتوجهان إلى محطة القطارات كرصاصتين تهيأتا للأمر من قبل ، تنزلقان إليها دون أن تروج فى خطوكما تلك الفوضى الضرورية ، تعبران شارعاً ، وشارعاً ، وشارعاً ، وتلطخان الشارع الأخير بخطوات ليست للشارع الأخير ، وعلى باب المحطة الكبير ستريك تذكرتها ما بعد الأخيرة ، ولا تدعك تدخل ، بضراعتها ، ضراعة بادرة أخت السابينات .. ، وحين ستزم شفتيها ، وتلم وجهها للأمام ، وتبتعد

خطوة ، خطوتين ، ستبدو لك خطواتها ممحوة . هاربة . مترعة باللاحركة حتى لربما صار فى إمكانك أن تتساءل - بينما لا تزال واقفاً - :

أكنت مفهوماً !

أكنت مفهوماً على إطلاق !

22 سبتمبر 1984

خرائب الهارمونيكا

كان يجلس متمدداً على مزقٍ من كرتون علب الحلوى ، لاح لى ، من مسافة عشرة أمتار غروبية ، شاحباً كعرائس الأساطير ، مفعماً بالعمر الطويل ، مخذولاً بالنهايات ، ومهلهلاً .

فى هذه الأمسية ، التى مضى « النيل » فيها من وراء ظهره ، وكنت فيها المار الوحيد أمامه ، فى هذه الأمسية الاستثنائية رأيته سليم الأعضاء تماماً ، غير معطٍ إشارة أو انطباعاً بالتسول . كان سيداً بالمعنى العام للحقائق ، وبالنسبة لى بدا أكثر من ذلك . أمامه – بينه وبين المار الوحيد – تراصت بعناية شديدة أوانيه المتكسرة والتى احتوت خبزه ؛ كسرات متنوعات فى متناول يديه ، اللتين ، طبقاً لروايته هو ذاته فيما بعد ، رقدت عليهما القلوب فى سالف الأيام ، وفرّخت أسرارها .

المجلات ، الجرائد ، نصف زجاجة الكولا ، المشط ، الطبق الذى احتوى حبات العنب واستقر على فوهة القلة ، .. ، كل هذه الأشياء لم أرها فى وقتها ، رأيتها متأخراً عندما أدركت أنه ما كان ينبغى أن

تفوتني . ما رأيته في لحظته الرهيفة والحرجة جبراً هو هارمونيكا تالفة والرجل معها يجهد ، كان يستجدى لحناً ما بينما تستوى على وجهه ويديه الأمارات القاسية التي يأخذها المشرفون على الغرق . كان غريقاً للغاية . كانت الهارمونيكا غريقة للغاية . وكنت خجلاً من موقع فرجتي .

أصابعه التي خمشت الهارمونيكا لاتني تختبىء تحت أكمام سترته القديمة الواسعة المبطنة بالفراء الرخيص ، والتي خلعها أمامي فيما بعد ليطلعني ، تحتها ، على القطعة العليا لزى الجنود البحريين : السترة البيضاء بياقاتها الزرق المتهدلة والأربطة المعقودة على الصدر ، التي صار يكفيني أن يلمّح لي أنه لم يلبسها إلا مرة واحدة حين وقف في انتظار موعده ذات يوم ، وأنه اضطر بعد ذلك وطوال زمنه إلى تغطيتها بكل الوبر والفراء حتى لا تبين ؛ لأعرف أنها مزيفة ، وأنها زُيفت من أجل فتاة كانت في السابعة عشر من عمرها عندما كان هو يجتاز الثلاثين ، آه ، الفتاة التي ياما قالت له املأ حياتي بالأزرق ! وخذني . فلبس الأزرق ، وأخذها ، هذا العجوز البحري الذى جندلته أمامي هارمونيكا ، والذى استطلع مني العينين ليقول : « اسمي دياب ! » . وليصمت بعد ذلك كمن أفضى بآخر الأسرار ، وأنا ، الذى لم يكد يسمع ، كنت منشغلاً على نحو ما بالتعرف على حاجاته ، ولكن رنة

عبارته الباترة كانت لا يعوزها المغزى ، وبدت على صلة بشىء وشيك يخطر فى مكان عميق ويتأهب للإشراق والإفصاح فى التو ، عندئذ كان العجوز ، المدرك ، يلتفت إلىّ بعينين عميقتين صديقتين ، ويقول : « ولكن ، قل شيئاً .. ، عرفّنى بالنبرات ! » فقلت له اسمى ، ولا أتذكر بأى نبرات معطوبة حدث هذا ، ولكن - وعلى كل الأحوال - عندما عدنا إلى الصمت ، كان شىء ما قد فسد ، وكان الصمت قد خلا من دراما الشىء الذى عج بحضور ذاته وأوشك على التفجّر لولا أن أدركته مشيئة الرجل ، فتلاشى .

وتجلت لى فكرة رائعة ، هى أن هذا الرجل لابد أنه أكثر شباباً وبهجةً مما يبدو ، وكانت فكرة ناقصة ، نقصها عنصرها الخطير والذى ما أن استقر فى إلهامى حتى عادت لحظات التفجر إلى سابق تدفقها . لقد بدا لى بما لا سبيل إلى الريبة فيه أن هذا الرجل إنما هو - أنا .

* * *

ما كان من الصعب على أى منا إدراك أن الفكرة ذاتها قد دانت لرفيقه بنفس الفجور ، ولذا كان علينا أن نتعاون بطريقة ما ، من وراء ظهر الادراك ذاته ، كى نبرهن على أن ما حدث لا يجوز أن يكون حقيقياً تماماً . وهكذا ابتدأ الرجل التعمية المطلوبة بالكلام ، بينما أخذت الهارمونيكا - فى يده - دورها كصولجان عاش الأحداث مع

صاحبه ويمكنه روايتها ، قـال دياب : لبستُ الأزرق ، وأخـذتها ، كنت لا أعـرف الألوان ، لا سيمـا إذا كانـت ألوان زهور ، الأحرى أن أخبـرك أنني لم أكن أعـرف الزهور حتى علقت لى « هند » قـرنفلة فى عروتى ، وتركتـها مـائلة قليلاً ناحيـة القلب ، وسألتنى : « هـل تعرف هـذه » ، لم أكن أعـرف أنني لا أعـرف ، ولذا فـقـد فـوجئت بسـؤالهـا ، أمـا هى فـأومأت لى مـرحـبة ومـتلذذة بحالتـي ، وهمسـت : «قـرنفـلة ، من أجل صدرك ، من أجل الخشـونة ! » ، كان همسها جليـلاً وباهراً ، ولقد صرت مبـهـوراً بـصـورة خاصـة عندمـا عـادت عـابدة الأزرق إلى نقطة البـدء فى فلسـفـتـهـا ؛ فلسـفـة الانتـقـام من الذاكـرات ، وقـالت بود : « القـرنفلة البـيـضـاء ، قـرنفلتنا ، من أجل مـزيد من الزرقـة ! » . وقـتـذاك ، كنت أشعـر تجاهها بنوع من التسـامى وثيق القرابة بالكسل ، ربما لإفتـقـادها طراز الجـمـال الذى كنت أظن أنـه يعـنينى ، ربما لحـداثـة سنهـا المربـكة والمعطلة لحـمـاستى . لا أعـرف . وبما أنى – ودونما شك – كنت مـوضـوع مـراهقـتـهـا ، وكنت متفرجها المخلص وهى تؤدى دور الجارية ومن ثم دور المتأملة والداعرة ، فإنى انتظرت . انتظرت .

وسكت دياب لكأنما كان هناك ماينبغى تعديله فى حكاية عـمـره . بدا الرجل زائغ العـيـنـين ، ضـالاً ، وباختصار مـاكـان بوسع أحد غيـره أن يمنح هذا الـتـعـبـير كـقـاتل مـتـفـرد تشـده إلى ضحاياه عـاطفـة كـاملة من النبل ، وبدا لى كذلك أنه على وشك مقاومة شئ ما .

بعد قليل صار بإمكاني سماع دياب يواصل : انتظرتُ أن تكشط عن نفسها شغفها بالمبالغات ، ويمكننى القول ، بعد مزيد من التروى ، أنى كنت أنتظر الانفصال ، وللحقيقة ، لايمكن إنكار أننى إستمرأت هذا الوضع الذى كانت تقوده صبية ساحلية ، شرقية تماماً ، هاربة من أهلها ومن « العالم » وقابعة بزاويتى ، لايمكن مجاراة القول بأنها كانت ذات جاذبية محدودة. ولكن وللحقيقة كذلك وبلا أى لذة اعترافية، يمكن التصريح بأنى ، من ناحيتى ، كنت شغوفاً بالنهايات . ولأىٍ من الأسباب كانت هند مولعة بإضفاء نكهات قوية من الابتذال والفجور على حالات عريّها . وكانت اللحظات التى تغمرها بكل الفرح هى اللحظات التى تبتكر فيها فجوراً جديداً تتمكن به من إخجالى ، وكانت تقول بظفر وبلكنة فلسفية «لم نخسر شيئا ! » إنها تبدو لى الآن - وربما بسبب الإنصاف بالتقادم - وكأنها كانت تحاول اختبار جسدها من أجل إعداد جيد لرحلة محتملة نحو مثال مقدس . وفى إحدى الليالى ، وكتعبير خالص عن الجنون وعن الحرية التى إئتلقت فيها روحها ، أعطتنى كل ثيابها ، وقالت : « هه ! ماذا تعرف عن مصيرى .. » فقلت لها شيئاً من قبيل «لاأعرف .. ربما ..» ، وصمتت هند، لتقول لى بإلهام النهاية القاسى وهى تمضى مندمجة بالليل ، وعارية تماماً : أنت تعرف . لقد خلعتُ جلدى !

ولقد لبستُ ثيابها ولبستُ فوقها سترة البحرية ولم أخلعها حتى ذابت ..

كان دياب طوال الوقت يؤدى بالهارمونيكا شعائر الهيبة والرهبة لكلماته ، وعندما سكت وأوقف إمداد يده وصولجانه بالسحر اللازم ، وأصبح بكل المقاييس والأوصاف ساكناً وساكتاً ، عندئذ صار من الواضح له - قبلى - أن مزجا مخيفا كان قد حدث ، وأن صوته ماكان ينبعث إلا من شي يمكن أن ندعوه - بيقين - الذهن الثالث لوجودنا وهو الذهن الوحيد الذى بدا لى - بذات اليقين - بلا ذاكرة .

* * *

دياب ، الذى تجسس على نبرات صوتى ليعلم أنى سأجيد إليه الإنصات ، إلام أرادالنفاذ ؟ ، وما سبب تكراره العبارة المنهكة التى أطلقتها طفلة ذات ليلة حادة دون أن تدرى أى ظلم كُدس فيها .

هه ! ، ماذا تعرف عن مصيرى .

كان دياب يعيد ترتيل الكلمات ذاتها بلهجة القلب المنوّر الذى أضاع حبيباً ولا يجرؤ على تصديق نفسه ، وكان يلتقط بكرم أحداث لحظة الكلمات الزرقاء ، لحظة اللعبة اليائسة التى همت فيها هند ، ثم انخرطت فى ذهابها الكثيف ، وعلى كل الأحوال ، ما كان دياب وحده هو الذى يعتبر أن هذه اللحظة هى لحظة اليقظة الفريدة التى وُعِدَ وأُتيح

له ، فيها ، رؤية زوجته الصغيرة وقد فُتحت الأعين عليها بلا حدود ، ووصلتها .

المجلات والجرائد والكتب التي كان دياب يرسل إليها كتاباته وأشعاره البصيرة الفاتنة ، والتي طالما بث فيها العبارة بحذافيرها متمماً شطر خالقتها لعلها تقرأ ، هذه المطبوعات لم تفطن إلى أن هناك من كان يراهن عليها كأمل متجدد لانتصار حياته أو بالأحرى لصيد حياته ، وكان دياب يرفق بخطاباته إلى ناشريه عنواناً راجياً خالداً هُييء خصيصاً من أجل رسالة لا تلتئم . كان يكتب إليهم على كل الهوامش بإيمان غير مفهوم : ستكتب إليكم سيدة تدُعى (هند) ، وستطلب أن تَوّصلوها إليّ ، فأوصلوها إذا سمحتم .

وما سمح أحد ، ليس فقط لأن ثمة عبثاً كان قد اكتمل بلا غاية وبلا تدبير ، بل ولأن من المؤكد أن هند لم تقرأ ولم تكتب ، ولم يكن ليخطر لها أن هناك عالماً كاملاً أوجد نفسه بإيحاء من حياتها لم تقصده ولم تدركه . ربما كانت قد تزوجت وأقلعت عن حفلات الدمار الصغيرة ، وصارت زوجة تدين بالطاعة لزوج ومطبخ . ربما هجرت الإسكندرية فهجرتها إلى غير رجعة وساوس البحر الحر ، القاسي ، المربك ، ربما ماتت . كل الاحتمالات ودياب لاينى يرسل ذخائرة صوب أمكنة اختارها حدس عميق معجز ، وحددها ذهن ساطع كان له أن يرى في نهاية

الرحلات أن هند - عروس الأمكنة - لا تصل مكانها . لا تصل . وفى الحقيقة فإنها لم تكن لا تصل وحسب بل كانت تشوش كل وصول ، وتنفيه .

والآن ، ومنذ أن سقط العنوان الراجى الخالد ، حمل دياب نسخ كتاباته وحاجاته ، وسار وراء عزيمة مجنونة . لقد بان أن ما ينبغى فعله فى النهاية هو أن يسعى العنوان إلى رسالته ، ويجلبها .

ودخل دياب البلاد ، وككل المحزونين الذين نزحوا تحت وطأة الحنين كان من الضرورى له أن يستمسك بشيء يكون هاديه وشاهده وسلطانه ومُبهَمه الأثير . واختار دياب الماء ، ورافقه .

وإختلط النازح بالفلاحين . سار كثيراً . عمل كثيراً ، وانقطع عن النظر فيما كان يكتبه ، حتى أنه فى مرات ومرات نازعته الرغبة فى أن يتخلص من مجموع الذكريات المهدّمة غير المؤكّدة ، ولكنه كان مهيأ دائماً للتراجع ، وكان يتراجع . وأفصح دياب لنفسه عن أنه لن يبحث ، وأنه سيكتفى بأن يلقاها مصادفة ، وأنه لن يجتهد أكثر من هذا ، وكتب فى سطوره الأخيرة : « هند ! ، لقد سرتُ فى كل الاتجاهات ، وما من شك أننا - مرةً - تواجهنا ، ما أبعد كل ما كان عن الوهم والسدى ، ولكنى مللت نفسى .. » .

فى نوبة الكتابة الأخيرة هذه جادت كل الصياغات بالألم ، وعنت النهاية بإيماءة ما . وكان دياب المتيم بالنهايات يولد من جديد . وفى مساء هذا اليوم - يوم الكتابة الختامية - ظهرت هند .

دخلت من الباب العالى الذى يناسب الدخول والخروج بذات الكبرياء . كان دياب نائماً كخطوة أولى فى خطة التجاهل التى انتهى إليها لتوه ، وكانت هند بجسدها الصغير تقف وراء صيِّيت عجوز على خشبة جرداء تحت ضوء القمر ، تدغدغ قصبة نايها بهواء رئتين وجيدتين ، والمغنى أمامها يطلق ارتجالاته ومواويله فى فضاءات القلوب التى أُخذت ، وبُهتت ، وصرّخت بسكونها ملء المدى ، كانت هند تقود الليل ، وتطيّر الصفاء ، وتصالح الجرح على الجرح فى وليمتها الكريمة ، وكانت تداوى جنونها على مسمع من الجميع . والجميع ! ، فليسهروا ، وليقعوا للنوم نفساً نفساً ، وهم يتحلقون الخشبة ، ولتنزل هند ، وتتخط مع مغنيها أجساد بشر نوّمهم فرط الإنتباه ، وليصيرا ، بعد دقائق ، على حافة البلدة ، يشربان من قُلة الضيف الذى تخلف عن جماعته كى يعول كابوسه ، متوسداً دفاتره ، ودائراً فى نوم قديم ، بلا مجد ، وبلا وعود .

دياب نائم .

دياب نائم ، بجسد غامض فضفاض ، وهند ، ستخطئه ، ستخطئه ، لقد اقتربت منه ، حتى أنها نشفت بلل يديها فى أغطية

نومه ، وبدت كمنْ توشك على إزاحتها عن وجهه لتُمكِّنَ له ، ولتنصره .
دياب نائم ، والصيِّيت العجوز يسأل فى الصميم : نرتاح هنا قليلاً ؟ ! ،
وهند - بلا حزمٍ - تجيبه : لا ، هيا بنا .

فيمضيان .

دياب نائم ، كبحَّار عزلته حادثة فى وسط محيط فما عاد مسؤولاً عن شىء حتى حياته ، وبعد مرور أيام قليلة متشابهة ستخمد قواه وسيتطلع حوله ، ويقرر كمنْ يملك الحق « ينبغى على اليابسة أن تفعل شيئاً من أجلى .. » ، ولو أن دياب كان ، فى هذه اللحظة ، يحلم ؛ لرأى نفسه وهو ينزع سترة البحرية عن جسده ، ويشوِّح بها عبر المياه المترامية ، ويصرِّخ فى اليابسة :

- إنهضى ، إنى أغرق دون انتباهك .

وعندما لا تجيب اليابسة سيرى دياب نفسه وهو يطوِّح بسترته البحيرة بعيداً ، بعيداً ، لأن شرف البحارة لا يغفر أن يغرق البحار وسط متعلقاته كعانس ساذجة ، دياب نائم ، وهند سترجع . لن ترجع . سترجع . لن ترجع ، ولا ترجع هند إلا لتجزى الساقى سقياه ، ستهديه هارمونيكا زرقاء ، ستتركها له بجوار وسادته : هارمونيكا باردة ، وسهلة ، وبلا جدارات ، دياب نائم ، وهند نائمة لأنها لو لم تكنْ لما عادت وشارفت على لمس الخيوط الأخيرة من نسيج كان لها ويتهالك

الآن فوق الجسد المسجى فى حضرتها . هند نائمة ، وما أتت إلا لتبدّل هداياها ، وتبعثها . وهند ما كانت نائمة ، لأن دياب التقط فى الصباح هديته ، مد إليها يداً عارفة ، وأخذها كما لو كان هو الذى رتب وجودها ، ما كانت نائمة لأنها عبر ذاك الصباح كان من الممكن مشاهدتها بصحبة مغنيها وهى تطبع على التراب المندى آثار أقدام صغيرة ، حقيقية ، جميلة ، وذاهبة .

هند .

* * *

شعب هند يسترسل فى نعاس ناعم بهيج ، ودياب يرحل . يرحل وهو يتابع النظر إلى هديته بالعيون الزاحفة التى صارت له ، ولو أنه حولها عن جراب الذكريات ، ونظر تحت قدميه لرأى خطوات نفسه وهى تزاحم خطوات امرأة قوية ، تحبه ، ولا تلتفت إليه .

* * *

وكان دياب يتمتم لنفسه ، أحياناً ، على مدى الطريق :
لا أعرف .. ربما .

11 أغسطس 1985

صحراء على حدة

من غير ما تردد ، وربما دونما تفكير : فتحت السيدة « ... » لعصافيرها أبواب الأقفاص ، وبيدين غائبتين راحت تدق على أسلاكها في حركات مشجعة للطيور لأن تنطلق .

خرجت الطيور تمشى مرتبكة ومتكاسلة ليس لأنها غدت شبه كسيحة وحسب ، بل ولأن الإظلام كان غليظاً إلى غاية تنذر بمرض وخطر . كانت السيدة « ... » قد أغلقت كل نوافذ بيتها بإحكام شاذ ، ثم أزاحت أثاث الحجرات الثلاث الأساسية الواسعة ، وأنزلت ما يزيد عن ستمائة قفص من فوق الحوائط والدواليب ، وهيأتها في هذه الحجرات الخالية ، ثم فصلت تيار الكهرباء فانسحبت الأنوار في لحظة ، عندئذ اتجهت بخطوات الجلال نحو الأبواب الصغيرة للأقفاص ، وشرعت تشرعها .

كان من الممكن بعد ساعتين أن تجد السيدة « ... » نفسها مدفونة تحت أرجل عشرين ألف زوج من العصافير الملوّنة المترقبة ، غير أن ما كان متوقعاً أن تفعله السيدة بعد ذلك قد حدث بالفعل عندما أزاحت واحدة من الستائر السميكة ، وسمحت بفتحة صغيرة في نافذة غربية

واطئة ، ومن ثم ، فجأة ، وجدت الطيور مساربها ، واندفعت من أجل التحاق نهائي بالسموات .

لم نعرف أبداً كيف بدا المنظر من الداخل ، ولكننا وعلى مدى أصيل كامل كنا مأخوذين بسلسلة لا نهائية من ألوان تطير لمرتها الأولى . كانت تفر من فتحة النافذة عصفوراً في إثر عصفور سهاماً تأخذ نفس المسار لمسافة صغيرة ، ثم لا نعود نراها :

وتصورنا أن السيدة ، في الداخل ، تشاركنا بعضاً مما نراه ، كنا فرحين لكوننا على طرفي لعبة واحدة طريفة ، وطويلة ، ومشبعة . وبدأنا نتوقع بزوغ مفاجأة أخرى من هذه النافذة ، وكان توقعنا مشبعاً بثقتنا في أن السيدة ستمتعنا بشيء آخر إضافي لا قبل لنا به ، كنا نرنو وننتظر من النافذة هبتها الأكيدة غير المعروفة ، وانتبهنا وتهيأنا لما ستفعله ، عن حب ، بعقولنا يد السيدة « ... » ، وطلبنا ، طلبنا بأن يأتي التحول الضروري في اللعبة ليمنحها هذه النقلات نحو ما هو أبهج حتى تصير اللعبة لعبة ، وكيلا نضطر لأن نسأل .

بعد وقت أدركنا أن السيدة لا تدري شيئاً عن أصيلنا ، وتورطنا في خيالات صعبة . كنا مؤمنين بأن لا أحد سواها بالداخل ، وكنا نعرف تماماً أن أحداً لا يستطيع ادعاء أنه رآها بوضوح ، ولكننا في تلك

اللحظات كنا مجبرين على إستحضار الـ .. لها بخيالنا وأنانيتنا واشفاقنا على أنفسنا ، وعاقبناها إلى حد جعلها تخوننا كى لا تخوننا . وعلى كل الأحوال ما كنا نملك ما يدلنا على أن السيدة لم تمض أصيلها مع المرآة بعد أن منحت جسدها حمّاماً ساخناً هادراً ، وتنظفت من مخلفات العصافير منقبة عن ضحكات وابتسامات ووجوه كانت لها فى الزمن ، ومجربة ملكاتها فى استجلاب دعامات لهيكل الروح ومن ثم البيت ، كانت فى جهادها أمام مرآة وشمعة تحاول أن تشد إلى أجوائها إحساساً مستعاراً ومبهماً بالفرح لأجل وجه عصىّ خالٍ من إنتباهه . كانت تجاهد ، وكنا لا نزال فى العراء بلا دليل نتابع لعبتنا المضللة ، وكنا زائدين لأننا كنا بعيدين ، بعيدين إلى الحد الذى لم نسمع عنده صوت مرآة الحائط الكبرى وهى تتحطم .

حدث هذا قبل مغيب الشمس من سماء يوم شتوى غائم ، وقبيل شروقها التالى كانوا جميعاً قد علموا ، بل كان لدى أغلبهم تفاصيل شاعرية بصدد مشهد الطيور وهى تنزع أجسادها من ظلمات حجرات ثلاث وترشقها فى آفاق ديسمبر الكحلية الغامضة . وكانوا – الكبار – أمهاتنا وآباؤنا – يغلقون دوننا كلماتهم :

– السيدة طيّرت طيورها ! هذا شيء طيب .

كانت كلماتهم تحمل نسغاً من أسرار محيطة وهموم ، وعندما كنا نظهر لهم الأخبار هكذا :

- وصلت مساء اليوم سيارة سوداء فخمة ونزل منها خمس فتيات يحملن علباً وأكياساً ولفافات ، وكان معهن أيضاً بعض الأطفال ، ودخلوا جميعاً بيت السيدة « ... »

كان الكبار يصدوننا :

- ياه !

ونمكث ، نحن ، لنقول لهم بعد يوم ، بعد يومين ، إن الضيوف غادروا ...

ياه !

لم ندر كيف كانوا يتحادثون بشأنها فيما بينهم ، ولكن كان يمكننا أن نتجاوب مع بعض غموضهم ، ونتشرب فهمنا لأشياء دون أن ندرك أبداً أننا أدركناها . أما هم فكانوا يفهمون شيئاً لم يخطر لنا ، كانوا يفهمون بوضوح أن المرأة قد صارت صمّاء نتيجة الإنصات اللامجدى طيلة أربع وعشرين سنة متصلة لصخب العصافير ، وكانوا يعتقدون أنها لهذا السبب بالذات استحسنت أن تمضى نصف عمرها الأخير فى التحصن ضد مكاشفة عاهتها . ونحن ما خطر لنا هذا الأمر قط ، ليس لأننا طالما وجدنا - أمام الباب الجانبى لبيتها وضمن الأشياء التى كانت تتركها لنا - أقراص الاستماع السوداء ، الأسطوانات ، التى حَطِمْناها فى لهونا بها أولاً بأول ، ولكن لأننا لم نتخيّلها صمّاء ، لم نكن قد رأيناها أبداً ، وكان يهيننا أن تصير محددة - وصمّاء .

بعدما كبرنا ، وبعد عشرات السنوات ، حشونّا أجهزتنا باسطوانات قديمة تجىء من زمن طفولتنا وما قبله ، كان يسوقنا فضول لأن نعرف أيهما كان الرحلة وأيهما كان الزاد فى يقينها . استمعنا ، واجتهدنا ، واستحققنا الإخفاق لأننا كنا من أرباب تأخير لا غفران له .

آفة التأخير لحقتنا منذ ذلك العهد الذى لم نكن فيه سوى صبية تشدهم النوافذ التى تُفتح دون أن يطل منها أحد . وعيوننا التى تكاد تكون مقيمة على البيت والنوافذ وأحبال الغسيل فى كل الجهات كانت ، بالرغم ، تُفاجأ بين حين وحين بأخشاب النوافذ وقد دُهنت وطُليت بألوان وردية جديدة ، وبأحبال الغسيل وقد مُلئت بالمفارش والملاءات . ويخطر لنا أن السيدة فى لحظاتها تلك قد فاقت حدود اليقظة وأنها ستطل علينا بعينين مقرورتين ، وستبيح لنا رؤية ملامحها خالصة خالصة كى تؤكد لنا أن كل لعباتها معنا كانت مقصودة ، وأن هداياها التى طالما أخذناها من أمام الباب الجانبى كانت منتقاة لنا ، ومحددة بصرامة لكل واحد منا ، وأنها كانت تنتظرنا وتراقبنا وقد هيأنا ملابسنا وصففنا شعورنا ، وصرنا عقلاء وظرفاء فى كل مرة كنا نمر فيها بجوار البيت أو نراقبه أو نلعب معه ، وكانت الملاءات والمفارش تجف وتُرفع من على أحبالها فيما كنا نتأخر تأخرنا القدرى الباهظ ، فلا يلوح لنا الوجه ، ثم لا يلوح ، ليبدو فيما يبدو أننا ندخره أو نتجنبه .

الكبار ، الذين توصل فهمهم إلى مهزلة الصمم بفضل سبعة عشر دليلاً دامغاً ، كانوا قد قرروا دفعنا إلى اليأس عندما بدأوا بترويج حكاياتهم عن أسفار السيدة « .. » ، تلك الأسفار المخبولة التى سيقت من أجل تثبيت صحتها أدلة دامغة مرقومة كذلك . وكانت ادعاءاتهم تبدأ من اللحظة التى ترفع فيها السيدة كل أثاثات البيت ثم تغسل الأرضيات بإخلاص مسافرة فذة ، دونما تعمد ، ودونما انتباه ، لأن الذكريات كانت هى التى ترتب كل شيء ، وكانت هى التى تدفعها - كغاسلة - إلى هذا الركن ، وتنقلها إلى ذلك الممر ، ومن ثم تدفعها إلى المكوث فى أنواء حجرة صغيرة وقتاً يعادل الوقت الكافى لبنائها أصلاً . وبدا لنا من فرط دقة تفاصيل الحكايات أن بوسع المرء إعطاء بيانات واضحة ومؤكدة عن ذكريات السيدة إذا كان له أن يتابعها مرةً وهى تغسل البيت فى عشية سفر ، ثم كانوا يدُخِلون السيدة المعنى الصارم للسفر بدراجة ، حيث كان من المؤكد فى ظنهم أن السيدة تمارس سفرها بواسطة دراجة بيضاء فاخرة لا تكاد تمس الأرض ، مرفوعةً بالبريق المنبعث من ذات الأرضيات المغسولة ، وقاطعة المسافات النظيفة الشاسعة عبر ساعات من التجوال الليلىّ فى الحجرات والصالات التى كانت تلتوى دائماً كى يستقيم الطريق أمام دفقات السفر التى اعتادت الوصول فى سلام . وفى النهاية كانت السيدة تصل ، تصل إلى حيث

لا أحد يعرف ، ولا أحد يتكهن ، وتخلُص السيدة إلى قضاء ليلتها حيثما كانت ، فتهييء لنفسها أحد الأسِرّة الصغيرة ، وتنضم إلى النوم بالملامح الصبورة الهادئة للملاك المؤمن ، غير مخضعة نفسها لمعايير جدوى سفرتها أو عدمها . وكان الكبار يزعمون كذلك أنه لو أتيحت لهم فرصة معاينة الأسِرّة الصغيرة المختارة فى نهايات السفر لاكتشفوا آثار الرجل ، الرجل المتكّون من إلحاحات حضوره ، وأنه لو أتيحت لهم الفرصة بصورة أفضل فإنهم سيتمكنون من قتلهما معاً فى أكثر الأوضاع زراية وخزياً . ومن ثم عندما أنشدنا لهم أنباء العصافير المحرَّرة وقالوا قولتهم الباهتة .. ياه ! ، كنا عارفين بأنهم سيؤولون الأحداث على طريقتهم ولذا فقد اخترعنا لهم أن السيدة كانت هائنة بما تفعل ، وأننا مكثنا حتى شاهدنا طيران آخر عصفور ، وأن السيدة بعد ذلك فتحت النافذة فرأيناها عن آخرها وهى تشير لنا إشارات مستبشرة .. ، وكان الكبار يُظهرون إنصاتاً وتصديقاً محيراً ومخلخلاً لكذبتنا ، ولكن انتهى الموقف بالنسبة لنا دونما تشككات كبيرة .

تعامينا ، بعد ذلك وطوال الأسبوع الأخير من ديسمبر ، عن رهط الملاحظات التى سقطت فى حوزتنا رغماً عنا . كانت أبواب الدور تبقى مفتوحة لما بعد التاسعة مساءً والأنوار الكهربائية تئز فى كل الحجرات لما بعد منتصفات الليل ، والآباء يتبادلون زيارات شاحبة طويلة مستبدلين

بكل الأحاديث المعتادة والنزاعات جلسات غامضة فى صحبة أباريق الشاى والكوتشينة بينما احتشدت ، فى سكون ، على أحبال الغسيل أطقم الملابس الكبيرة لهم ولنا كذلك حتى أننا لم نجد مفراً من تناول هذه الملاحظات - بينما كنا فى طريقنا إلى بيت السيدة « ... » ، - ووافقنا جميعاً على الاقتراح الذى أسداه واحد منا بتلخيص شديد وحدس مفعم : السنة الجديدة !

لكن ، قبل انقضاء الأسبوع ، تم هدر اقتراحنا تحت وطأة الصخب المألوف لسيارة الشرطة التى اقتحمت البيت باعتياديتها الفائقة وشكليتها القانونية ، مانحةً الحق لعشرين فرداً غريباً هم سدنة قوتها المسلحة بالتواجد غير المسبوق فى صدر مكان الأمكنة ، حيث فتشوا ، وانتشروا على وجه الخصوص في الحجرات الثلاث الأساسية وفى حجرات نومها السبع ، المطرزة بألوان الأيام جميعاً ، والمعقودة على الجثة الصغيرة الخافتة بعينيها المرصعتين بإيمان أسود ، الجثة التى لم يُتح لها أن توجد إلا على نواصى المرايا الكبرى المحطومة ، موصدةً أخبارها ، متمةً موتها ، غير مبيحة لهؤلاء الذين قدموا ليدققوا ويفتشوا أن يجدوا ما يسجلونه طيلة سبعين ساعة ، وغير معنية بالحقيقة التى ابتعثها أحدنا بعدما دخل خلسة ثم أصر على إثبات أقواله ؛ ذاكراً أنه كان من السهل ملاحظة أن كل شىء كان مفتوحاً ولو بدرجة صغيرة .. جميع الأدراج والأبواب والنوافذ والصنابير والدفاتر .. حتى علب الكبريت .

هذا الفـرد الذى لم يعـد أبداً إلى صحبـتنا موبوءاً بصمت الجثة المشرق وموهوباً عينين ثقيلتين عنيدتين ، ظفر بفراقنا - بعدما نهبت سيارة الشرطة البقايا الكاملة للسيدة ؛ ملتئمة برذاذ مراياها ووثائق موتها ، وبعدما سكّرت أبواب البيت بالشمع الرسمى - ومضى فى ذات الليلة .. مستنداً فى سفرته الأبدية الطاغية إلى دراجته وغير تاركٍ لنا سوى الآثار الهشة للرحلة الحميمة .

30 يناير 1986

أغسطس الصغير

أيام . كان يُوقظ فيها مع كل فجر ، ليلتقط قلم الفحم ، ويخرج إلى شرفة البيت ، فينفرد بلوحة بيضاء ، يشدها إلى حاملها ، ويبقى منتظراً دقائق قليلة تغافل أمه فيها نعاسها ، وتدق على باب الشرفة الزجاجي بالملعقة الصغيرة ، لتضع له كوب الشاي بالحليب الساخن ، ثم تتركه مع ورقته البيضاء النظيفة الملطخة بصور تملك أن تتجلى في كتل الهواء أمامه ثم لا تتهيأ لأصابعه التي لا تمتد إلا بعد ساعات ثلاث لترفعها ، وتعيدها ملفوفة ، وتركنها بتراخٍ إلى هذا أو ذاك الحائط ، ثم يرجع ليجد الشاي بالحليب قد برد ، وختمته قشرة رخوة غير محبوبة ، فيكشطها بإصبعه ، ويمتص شرابه ، ساحباً إياه من بين أسنانه المفروقة ببطء واستغراق ودون أن يرفع الكوب عن فمه ، منجزاً عبر الوسيلة تغاضيه عن الهباء الذي حدث ، عندئذ يكون عليه أيضاً أن يتجاوز نصيبه في البؤس ، أي يكون عليه أن ينسل إلى سريره بعدما يعيد تعتيمه ، لينام نصف ساعة يتاح له بعدها أن يصحو ، وأن ينال اليوم من صباح آخر . وكان ينهض من تلقاء نفسه ، مختنقاً بطعم اللبن

المسكر فى فمه ، إلا أنه بعد عشرين دقيقة من هذه اللحظة ، وعلى مدى صيف كامل ، كان يُشاهد فى الطريق ، فى منتهى أناقته ، قاصداً ورشة النجارة .

* * *

كان يعمل مع آخرين ؛ أربعة نجّارين ورئيس . والرئيس هو الذى يوزع عليهم الأعمال يوماً بيوم ، أو هو بالأحرى مَنْ يحيطهم علماً بما يتعين عليهم تخليصه من أشغال ، موفراً للجميع فرصة الاختيار ، وكان دائماً ما يبدأ به مستفهماً .

– محمد ! فيم ستضع يدك ؟

ودائماً كذلك يعمد محمد لاجتناب المشغوليات التى تروقه ، محبذاً رؤيتها مبددة بين أيدى الزملاء ، ودون أن يلحظ الصيغة الكهنوتية التى يصدر بها رده كل مرة ، يتكلم ، مفاجئاً نفسه أيضاً :

– أضعها فيما سيبقى لها .

ويختار الآخرون ، ورويداً رويداً يندمجون فى أعمالهم ، ويحوز محمد المهمة التى لم يتحمس لها أحد إذ تكون فى الغالب مملة وجالبة للأخطاء ، دون أن يستسيغ إعترافاً بأنه يستمرىء نيل الورطة كل مرة ثم . ثم يكون له أن يندمج ، كالآخرين ، ولكن ليس قبل أن يتيح

لإحساس ضرورى وشامل بالتحزن أن يدركه ، ليبقى طوال الوقت فى حضرة هواجسه يستنقذ عمله ونفسه من أخطاء حاطئة ، بلا معنى وبلا نفع . وقت يمضى ، وضرورة الانتهاء من عمله قبل الآخرين تتربص به وتتهيأ لها سطوة النداء عليه ، وهكذا يوفر محمد ساعة ، يضيعها متكئاً على كرسى عتيق أمام الورشة ، فى حين يوالى تدخين سجائره ، ويتلصص على حرصه فى أن يحتويه حيز رؤية الزملاء الأربعة ، لاهياً عن إدراكه بأنه إنما يضمن بذلك حراستهم له فى تلك الأصائل ، حيث كان يتلقى سؤال الأختيار من جديد ، يتسمّع : محمد ، فيما ستضع يدك ؟ ، ويكاد يسمع صوتاً هو صوته بعد كل حساب ، يقرر : فى هذا . ويختار محمد ما كان يريده من مشغوليات اليوم ، وخطوة خطوة ينجز عمله ، فى ذات كتل الهواء ، بالذهن المشمول بالصفاء ، وبالقلب الرتيب ، ورغم أنه لم يكن يهمس لنفسه مشجعاً فى لحظة الانتهاء . أنقذتها ! ، إلا أن الكيمياء التى تصوغ هيئة المنقذ تدخله فى تلك اللحظة وتعبىء نظرته . ويتم محمد عمله ، ويكون أن ينتهى زملاؤه أيضاً من أعمالهم ، فيقدمون إلى جلسته ، غير مبالين بكتل الهواء لأنهم لم يتوقعوها ، ولم يتعثروا أبداً فى الخيالات المنصوبة فيها ، كان محمد لا ينتبه لذلك ، ولكنه كان يشعر ، أكثر من أى شىء آخر ، بأنهم إنما يتعثرون فيه ، ويجىء الرئيس ، منتعشاً بصخبهم ، ويقترب منهم بخطوات حسود حتى يصيروا جميعاً محل نظرته الباسمة فيحييهم :

- أيها الفنانون ! ، مساء الخير .

فيهللون ، ضاحكين :

- تمام ! تمام ! مساء الخير .

يتضايحون هكذا ، وكأنما يهدهدون أنفسهم ، لأن الرئيس سيتفحص فى الحال أعمالهم كعادته ، ويختبرها ، ولكنه سيردد ، غير عابىء بتردى الإيقاع : تمام ، تمام . حتى قبل أن يمديده إلى أى شىء ، سيرددها بلا إنقطاع تقريباً ، على مدى عشرين دقيقة يناظر خلالها أعمال اليوم ، أما محمد فسيكون عندئذ كما كان ، جالساً ، يتأهب للأنصراف ، لا يكاد يغفل أن أحداً لن يستطيع لمس أعماله أو استعراضها ، وأنه ، وهو الذى دسها فى الهواء ، صائرٌ إلى عماه عنها بعد وقت لن يطول ، متعزياً بأنها - بثمة وسيلة - نُسخت وُطويت ، له ، باسمه ، فى رحابات الكون ، الحافظة ، الصارمة . ويناديه الرئيس ، من وسط أخشابه ، ليسأله بفضول :

- هذه القطعة ، من عملك اليوم . أليس كذلك ؟

- إلى حد ما .

- يعنى .. ؟

- أعنى أنى صانعها إلى حد ما !

- أتراك نظرت إليها كثيراً ، كثيراً جداً ؟

– لم أكد أنظر إليها .

– تعرف ! ، تبدو وكأنها جزء من ذكريات شخص .

ويرمقه محمد ، محتاطاً لئلا يقسو ، وينبهّه بأمانة :

– صدقنى ، ليست إلا أكثر سوءاً مما تظن !

وينصرف محمد مع زملائه ، بينما يوافيه طعم الشاى بالحليب ، ويغصه .

* * *

الأبدان الغضة كانت عندئذ ترشدهم ، وتفتح لهم عيونهم على مساءات صيف ناعم أزرق تتساب فيما لا يشبه إلا القرين السحرى للنهار والليل ، وكانت نظرة المُنقذ تُستعاد من عينيه ، فيمسى فى مقدوره كذلك أن يفتحهما على صيف له نفس العلامات المدوِّخة لأول صيف تذوّقه بشر الأرض ، دون أن يمسى فى مقدور شيء أن يدله عما إذا كان قد شوّقه هذا الكمال الباذخ المنتصر فيما كان من حياته أو فيما سيكون ، غير أنه فى تلك اللحظات المفعمة بخصب وخصب كانت النعومة تشوشه ، وتحطه ، وتُمْض روحه ، ليحس أنه إنما يُقاد إلى ما ينبغى عليه أن يتحداه ، وينكّسه .

كان محمد يتوارى من صيفه لأنه تطّير ، مرةً ، من خطط الجمال المسمومة ، المتلاعبة . وفى الصيف التالى كانت لوحته البيضاء

بيضاء ، لم تنل غير غبار سنة ، توالى توليد حرمانها من صورة عصّية لوجه عائشة . ومحمد ، الذى استنسخ فى كتل الهواء كل الهيئات التى اشتهاها من وجه عائشة ، لم يحصد خطأً من إحداها على لوحته ، وكانت لا تستقر له ، فى النهايات ، غير صورة وجه رقيق لا يؤتمن من دورة عائشة .

فى الشتاء ، أهداها محمد مركباً بحرياً صغيراً ، لعبة ، عملها من خشب وحرير ، فقالت له وهى تسّيرها على فخذها إنها فأل سىء ، ولكنها وعدته بهدية ؛ دمية بالحجم الطبيعى لعروسة تقبْل وتداعب وتغنج وتخاصم وأسرار أخرى لم تبح بها عائشة بنت العشرين التى وعدت . وفى الشتاء كان على محمد أن يتناسى أنه يترقب نهايات الصيف الذى سيحل لأن عائشة اشترطت أن توافقها حركات المركبة عندما تهب عليها نسمات أغسطس حتى تقدم هديتها .

كان كهنوت عائشة قد هيأ لمحمد أن يتذوق فمها مرة ، وأن ينال لسانها ورضابها لمّا كانت عائشة قبالته تحوّطه بنظرات مدوّمة ، ممرورة ، طويلة ، ثم كتبت شيئاً على باطن كفها ، بتوتر ، وكوّرت له يدها وقالت :

- إسألنى سؤالى .

فقال محمد لها ، وله :

– أنت ! ممنوعة من جمالك . جمال عائشة . الذى هو لنا ومستغلق دونك . أنت محرومة من أن تنالى نفسك .

ألا تفكرين ، حقيقة ، فى هذا ؟

طوقته عائشة ، بنعومة وخفوت ، وتذوقت فمه ، ولسانه ، ورضابه . وشربته .

هذه هى الخاطرة ، التى توجب فقط أن ينطقها أحد لا لتعتنقها عائشة وحسب ، بل ولتفتح لها كياناتها فى التو لتدخل وتسرى فى العائشات التى كانتها ، منذ أولها وحتى اللحظة التى ستسحب فيها لسانها من فم محمد لتقول له بالصوت الهش المستعار من « بادرة » :

– أول إنسان أحبه !

وتنقر على دماغه بسبابتها ، وتكمل بذات النبرات التى كان يرد محمد بها على سؤال الاختيار من رئيس الورشة :

– دع هذا يستريح ، قليلاً .

ومحمد لا يرغب أن يتواجها نوراً لـ نور ، ولا يريد منها أن تقول حبها له ، يريد شيئاً من العتمة ، ويود لو أنه يسكت ، فلا يسكت :

– عائشة . لا أعرف كيف أرسم صورة لك . إنى أنسى ملامحك . وهو يفهم أنه لا ينسى ملامحها وإنما يعوزه أن يطوّعها فتعصيه . ويصمتان فتسعيد عائشة مرارتها :

– محمد ، منْ أنا ! ، صف عائشة يا محمد !

* * *

في ما بعد ، وفي أحد صباحات مارس إنتظرته عائشة لأكثر من خمس دقائق لتعيد إليه خاتمه ، ولتؤدي له عبارات : أنا أخاف مني عليك .. إلخ ،، ونبقى أصدقاء .. إلخ ، ومحمد الذي تراءى له هذا المشهد الصباحي بحذافيره وقتما أعلنت عائشة الانتظار حتى تقرر نسائم أغسطس شيئاً بشأنهما ، مثلما تراءى له شخصه وهو يرمي الخاتم المردود تحت جزمته ويهرسه ، كان يرد في مارس بنبالة فادحة :

– نكون أصدقاء .

في أغسطس لم يبدُ متوقعاً أن تُختبر المركبة الصغيرة ، ولكن فكر محمد بها ، وتمنى لو أن تختبرها عائشة ، وهو معها ، للحظة واحدة ، معتقداً في تحصنه من أوهام الالتئام بحبها من جديد ، ومنساقاً إلى التأمل بأن أغسطس الذي انُتظر طويلاً ، سيُعاد انتظاره بكل التضاعيف وعلى مدى العمر مالم يُوف نذرهما ويدعا المركبة للنسيم . لم يكن محمد حينئذٍ يملك أن يرى عائشة ، ولكنه كان يملك صورة وحيدة لها ، في ذيل احدى صفحات مجلة أطفال قديمة رخيصة ، فقصها محمد ، وصمّغها ، وضغطها على ورقة كرتون ليقوّيها ، فأفسدها الصمغ ورطّبها ومسخها ، وبعد إنقضاء الظهيرة في محاولة مخلصة ، عاجزة ، لإنقاذ الصورة واستعادتها ، تناولها محمد بين إصبعين وأسقطها ببساطة في مطفأة سجائره ، وهو يدرك على سبيل اليقين أنه ما أراد هذه البساطة

لحركته ، وأن عائشه استردت نفسها منه تماماً تماماً . كما لو أن شيئاً لم يكن .

* * *

كانت الفتاة ترسم . بالأحرى كانت تعلم طفلة مبادىء الرسم ، وترشدها : أديرى خطاً هنا ، تحصلين على ابتسامة للوجه .. نفتح الفم قليلاً لنؤكد النظرة .. أما الألوان ، فلن يحيّرنا سوى اللون الأول . بدا يسيراً وغير لافتٍ أن يبدل محمد مكانه فيدرك وجه المعلمة ويطالعه ، ولم يكن ليفعل . ومن مكانه ، حيث وجهها سيظل محجوباً بشعرها وبحركات الطفلة ، كان محمد يلعب مع صوتها ، ويخمّن الملامح والاسم لها ، اللعبة التى نُحيت ، فى التو ، من أساسها ، عندما نُوديت الفتاة للتليفون .

قبل انقضاء عشرين ساعة ، وفى جلسته المسائية أما الورشة لم يحتشد محمد لتعديل اختيار مشغولياته ، ولم يتابع كعادته أغسطس الذى كان يمضى ، منصرفاً إلى التفكير فى ذراعيّها الشائهتين القصيرتين مثل ذراعيّ وليد . الذراع اليسرى البعيدة الممسكة بسماعة التليفون ، الذراع اليمنى التى لا تفسر المكالمة ، ومسلماً بأنه لو لم تُباغت اللعبة لحاز لها ذراعين إغريقيتين شامختين . وفى ليلته ، وبينما هو منكفىء على موسوعة مصوّرة عن كل العصور ، يفتش فيها

عن ذراعى « بنلوبى » بدت له لعبته مستبدة ، وآثمة على نحو ما ، وبان لنفسه ، للحظة ، وكأنه تأهل لأنْ يرجو رجاءه ؛ لأنْ يلمس ، تحديداً ، ذراعيّ وداد .

* * *

بسبع حبات نمش على وجنتيها ، كانت وداد تبتسم له ، فى عينيه ، بوداعة وعذوبة ، وهى تضمه إليها بقوة مدهشة ، وتهمس :

- لا أستطيع احتضانك بما يكفى !

وكان - هو - يضمها إلى قلبه بامتنان ، مستشعراً خجله من ذراعيه ، آنساً بذراعيها ، وغير معصوم من الانتباه إلى أن جسدهما كان يتلقى ، فى رحمة ، قبساً من نسائم يوم أخير من أغسطس .

18 ديسمبر 1987

نخيلة ترشد القمر

I

أنهضها ملاك مطيع من نومها ، وانصرف . شكراً له . لعلها لم تكن نائمة جداً . فى الحقيقة كم هى هينة وظيفة الملاك المكلف بإنهاض أم . ولأنه ، بسلاسة ، تفيق الأمهات من نومهن ، فقد ظل ملاكها طيلة عشرين سنة وحتى هذه اللحظة وفياً لوسيلته ، ولطالما توفرت لديه شذرات من رائحة فحم مُطفأ بالماء ، رائحة ماصة ، داكنة ، ما كان عليه إلا أن يبثها حول فراشها ، فتنهض الأم .

آذان الفجر لا ينبغى إعتباره شيئاً وشيكاً الآن ، فلن يُسمع قبل انقضاء ساعتين . أما الملاك حامل رائحة الفحم فقد مر بالتأكيد وأطلق شذاه . والأم لا تمد إصبعها لتطفىء الراديو الصغير بجانبها رغم أنه كان يصفّر بطريقة تعنى بجفاء ووضوح أن الآخرين ، تماماً ، نائمون . ربما كانت تحتاج هذا الصفير ، هذا الود الضال ، المعكوس ، لتتسلى ، وحتى يتسنى لها أن تقعد وتتطلع إلى الطلاء الجيرى على حوائط الغرفة وقد شحنه نور القمر وضوأه ، فتبدو - كعادتها فى مثل تلك الليالى - منساقة وراء نظرات نفسها ، وهى تتصيّد تهيؤاتها من تجعيدات الجير

على الحوائط ، ومن أخلاط الظلال والمسامير والأشياء المعلقة . رائحة الفحم المطفأ بالماء خافتة جداً هذه الليلة ، والأم فى فراشها تتوقع أن يخبط أحدهم على بابها ، تتوقع الخبطات كمن اتفقت عليها ، وتعلم أنها ستأتيها مكتومة من أسفل الباب بفعل قادمٍ جرىء يركل الباب بقدمه أو ركبته مرات عديدة ، ويدخل ، ويشرب ، ويستريح ، ويصدر كل الجلبة التى تليق بعائدٍ عزيز ، حتى أنها مدت يدها وأطفأت صفير الراديو ، متخلصةً من تعويقه وانعدام جدواه ، باحتراس ، فهى ستعاود الاحتياج إليه على أية حال ولو كشىءٍ لارسالة له ولا مشيئة . الليل يطلب حطبه . والباب ، عساه يخبط خبطات حقيقية بعد قليل ، خبطات من مستوى الكتف ، ذات علو ، تحذقها الأم حالاً ، فتدخل حسيبة ، ابنتها ، أو ابنة أختها بالأدق ، بذات الطلعة الرصينة وقد أحاطت عنقها بشال وردى ينضوى تحته شعرها الأسود الآسيوى ، شال لا يقّيد شعرهُ ، إنما يشده قليلاً إلى العنق ومن ثم يرخه على الظهر ، لتتلذذ هى بخربشة أطرافه على كعبيها وبطنىّ قدميها فى قعود الصلاة .

الفجر هو طاووس الصلوات ، عيدها ، ذلك أنه حنون وحسب ، لا يبلبل ولا يمتص أشواق الروح . وحسيبة التى تحضر لتصلى الفجر ، دائماً ، مع خالتها لا تكترث بما إذا كان انتباهها لدغدغات كعبيها يفسد صلاتها أم لا ، وكانت كذلك لا تعتبر صلوات النهار ، كانت صلوات النهار لا تواتيها .

والليلة ، ما أشد تنعم الأم بما تمنحه عينا الفتاة من سلام . سلام طافر ربما كان الحال يتعلق بنافذة تُفتح أو تُغلق هنا أو هناك فى نفس احديهما ، وربما كان هذا السلام محض صدفة .

كأنه ليل ، وكان سلام يشبه السلام .

بعد أن أتمتا شعائر الفجر ، همست حسيبة التى ترعى انتظاراتها :

- أمى ..

وسهت عن قول ما معناه أن رجلاً ، البارحة ، فاتح أباها فى شأن خطبتها .

وما كان الأمر أمر سهو .

فيما كانت الأم التى ترعى انتظاراتها كذلك تفهم أن ابنة الأخت قد سهت عن قول ما معناه أن رجلاً فاتح أباها في شأن خطبتها ، وأن الأمر ما كان أمر سهو .

وثانية همست حسيبة :

- أريد أن تساعدينى حتى لا يقبله أبى .

تنفس الصبح ، ونعست الفتاة متكورة فى ثوبها الأخضر ، ومتجلية في الغبش مثل حفنة دافئة من عشب .

* * *

II

حسيبة ، اسم أزرق ، ذو بشارة ، يكاد يتهيأ كلما تهيأت أنثى لتتمتع بأمارات التكتم على انتظار مالا يمكن كشفه . لحسيبة ، كان إذاً ، اسم حسيبة . ويذكر جلال الدين ، أنه ، وفى عمر العاشرة ، كان أسود القلب بما يكفى ليرجو لو أنها حازت منذ الأصل اسم لجلاء ، الواضح ، السامق ، المحفوظ فى كتاب سيرة أبى فراس الحمدانى لتطالعه عيناه ، فيشغفهما ، لم يجرب أبداً أن ينطق بحروفه ، لم يجرؤ ، ولكنه اهتدى إلى كتابتها ملتوية كطلسم لا ينفذ إليه أحد . وكان له ، فى العاشرة من عمره ، أن استوت لجلاء وكتابها سراً أثيماً بينه وبين نفسه .

صيّرهما الأهل خطيبين حين كان هو فى الحادية عشرة وكانت هى فى الثامنة ، وفى وقت متأخر من ليلة الخطبة اختلى جلال الدين بكتابه ، ثم دفنه ، دسه فى حفرة ، بلا شعور تقريباً ، والنسخة المستبعدة لم تكن ملكه ، وإنما كان قد استمرأ إختلاسها من صندوق شقيق حسيبة ، الذى اكتشف ضياع كتابه . فيما بعد حصلوا على نسخة جديدة من ذات الكتاب ، لم يقربها . فى الأيام التالية لخطبتهما ، داومت أمه وأمها على استعادة كون حسيبة ، وبينما هى مُجلسة إلى جواره ، بقيت ساهمة العينين بنظرة ممتلئة ، لا ترمش ، رصينة إلى حد

أن لونهما - عبر الليلة - إستحال من العسلى إلى الأسود ، فاحتسب بأن ما حدث فى حال عينيها إنما هو بسببه ، وأنه لذلك شاهد يُلزمه .

أثناء أواسط النهار ، بقيت حسيبة تصادفه ، بينما هو يمر عبر باحة بيتهم ، لمرات عديدة كل يوم ، آتياً ، أو راجعاً إلى رفاق ألعابه ، مجتازاً البقعة التى آوت مجلسهما ليلة الخطبة ، متمهلاً ، وملقياً على جسدها إيماءات شاحبة ، مرتبكة ، ولو أن حسيبة كانت أكبر بعشر سنوات لأدركت أن ما يتلقاه جسدها إنما هو أكثر شحوباً وأكثر ارتباكاً إلى الحد الذى ييسر التوهم بأن جلال الدين ، خطيبها ، قيد التأهب للمرض ، للرجولة ، أو لإحدى لعبات الكيمياء المدهشة .

ومهما يكن من شيء ، فقد انقضت تجوالاته القلقة فى أواسط النهار ، وبات مفهوماً لدى الأهل ، فى البيتين المتصاهرين ، ذات ليلة ، وبعد حادثة السيدة « .. » ، صاحبة العصافير ، أن جلال الدين قد فسر أو هرب أو غادر بدراجته ، دون أن يمس أى شيء من متعلقاته ، وتناقلوا الخبر فى هدوء وحزن شفيف لكأنما مسوقين بالإيقاع البهيج الكامن لليلة دافئة مقمرة بهية من لدن يناير . وانفردت حسيبة بالعثور على الحريقة الصغيرة ، التى بدا أنه أشعلها ثم اطفأها بالماء قبل أن يمضى ، والتى حفنت الأم من رمادها واستنشقت ، حريقة خضراء لا تُنسى ، فسيظل ملاك الأم يمد كفه البضة فيها ، وينتشل من رائحتها ، وينثرها على فراشها ويوقظها .

لعل جلال الدين قد ألقم النار كتابه السرى ، بعدما نبش عليه واستعاده ، وشاهد قبل أن يصب الماء على النار رماد حروف تجلاء يختلط بباقى الرماد ولا يفقد سموقه وسطوته على عينيه .

* * *

III

رائحة فحم مطفأ بالماء تهب على سرير الأم ، كالعادة ، وتوقظها ، بينما حسيبة لم توافِ بعد ميعادها الليلى لمؤانستها وصلاة الفجر ، ولعادته ، كذلك ، يوشك جلال الدين أن يدفع الباب ليعود ، ربما تعوزه معجزة هيّنة ومخففة ليس إلا ، والأم فى سريرها ترجو وتطلب الخبطات الدقيقة ، الأليفة ، التى لحسيبة ، والصادرة من مستوى كتفها ، وباتت العاهلة التى تكفلت عشرين سنة بانتظار غائبها يبهظها الآن أن تتأخر حسيبة هكذا .

كانت حسيبة قد أسلمت هواجسها طوال ما بعد الضحى إلى لسان عرافة غجرية متجوّلة ، فأحيطت بتفاصيل مرتبكة ، متكاثرة ، صائبة وخاطئة ، واستسلمت للإنصراف عن متابعتها ، متأملةً ، وفيما يخص خطيبها ، جلال الدين ، ما إذا كان هو المقصود بـ من لحمكِ ودمك ويرجع بعد سنة ، أم أنه هو الذى ستحمل من صلبه جنيناً مع تبويضها المقبل ، أم .. ، بينما الغجرية مستغرقة في صميم حرفتها ، مستعينة بما تتناوله

من جيوب جلبابها ، ليصير لدى حسيبة ما تتوقعه عن الكهل الذى سيُشيِّع جثمانه ذات ليلة مقمرة ليُدفن فى بقعة جرداء حمَّصتها فيما سبق نار حريقة خضراء .

ليل يطلب حطبه ، والأم تتملص من سريرها ، وتفتح الباب الذى لا أحد وراءه ، وتعود لتنتظر فى فراشها ، وتشيِّع نداءات الفجر ، وتبددها ، لأنها لم تحمها من خلو الباب من خبطات حسيبة ، حسيبة المُصلية الجميلة التى كان ينبغى بذل الانتظار فى سبيلها من قبل مئذنة ، صارمة . ليل يطلب حطبه ، وفى الليل لم يقو الإنسان على عمل شىء ، أبداً ، غير النظر داخل نفسه ، ربما كان هناك منْ يبذر الحَب لأرضه ليلاً أو مَنْ يقيم بناءً ، إلا أن هذا أيضاً إنما ينظر داخله محتالاً ، أو متنكراً ، أو متناولاً ثمة أداة .

وتدخل حسيبة ، دون أن تبالى ، وهى ترمى بنفسها فى أحضان الأم ، بأنها المرة الأولى التى تجردت فيها من عطرها الحار ، الداكن ، الثقيل ، الرجالى ، الذى نثروه عليها وقتما كانت عيناها تتحولان من لون إلى لون ، والذى أطلقت شذاه لأكثر من عشرين سنةٌ ، ليلة بعد ليلة ، مخلفةً مئات القنينات الفارغة ، والأم تضمها بشغف ، ولا ترخيها . كل المآذن صامتة ، وحسيبة التى كانت تنتزع نفسها من التفكير فى تبويضها المقبل ، تمتمت فى صدر الأم :

- صلاة الفجر !

- تزوجى يابنيتى ..

قالتها الأم ، تزوجى بنيتى ، استريحى ، قالتها كما لو أنها تزف بشارة سماوية لا نقيض لها ، تزوجى يا بنيتى ، واقلعى عن انتظاره ، عساه يفهم أو يستريح كذلك ، كانت الأم تتمتم ، وتشحن نبراتها بقوة أفكارها ، ورحمتها . ويداها تربتان على شعر الفتاة وكتفيها وظهرها حيث العطر غافل ، وحسيبة تتلقي رُقّيتها وهي مغرقة وجهها في صدر الأم ، عاجزة عن الانتباه ، وعن رفع وجهها وفتح جفونها لتتبين حاضنتها التى سترعى انتظاراتها منفردة ، كانت حسيبة تشعر بقلبها يتخبط عشوائياً ، دون أن تنفعه أنفاسها الضحلة المتهالكة . ولعله - قلب الأم - هو الذى كان يتكفل ويقود ، فى تلك الأثناء ، حياتهما ، بجدارته وفضائله كقلب أم .

وحسيبة ، لو أنها قويت على التعبير لقالت ، نعم سأتزوج يا أم جلال الدين ، يا أمى ، وسأزيح الأنتظار كما نزيح الحداد دون أن نعلّى الحزن أو نتهمه ، وحين يمتلىء ثدياى ويتفجران ، سأشبع طفلى ، ليشب ويؤاخى جلال الدين ، وآنئذٍ سنتمكن جميعاً من انتظاره كما يليق .

بعد أن أتمتا شعائر الصلاة ، جلست الأم تعجن خلطة الحناء ، فى طبق صينى صغير ، ورويداً رويداً انبعثت رائحة الحناء الدافئة إلى هواء الغرفة وعبقته ، كان الوقت سكوناً مشمولاً بالسلام ، هبة الفرح ، وقطعة من ذكريات تتهيأ هنا أو هناك .

طلع الصباح ، ومابال حسيبة تضع وتضع نظراتها الراضية على يدىّ الأم الفيّاضتين ، وتخلد لإنصاتها الورع للحكاية الأثيرة ، المستعادة ، عن المرض الذى إستغرق جسد جلال الدين وجسدها طيلة شهر ، متتبعةً تضافر الأحداث وهى تكاد تُميت الطفلين فى كل مرة وتهلكهما تحت طائلة التايفويد وهذياناته ، لولا الصباح الذى أنقذ فيه الطفلان نفسيهما حين نهضا من تلقائهما ، سليمين ، يلعبان .

ما بال الصباح يشبه الصباح .

* * *

IV

أنهضهما ملاك مطيع من نومها ، وانصرف . شكراً له . لعلها لم تكن وحيدة جداً . كانت موصولة عبر الباب المفتوح بلمحة من فردوس صغير حميم ؛ فناء البيت . فى وسطه وقفت نخلة بلح تُلاشى العتمة ، وتخترق السقيفة ، موالية ، بأناة ، نموها وترقيها . كانت قد نمت مائلة وهى صغيرة ولطالما استهوت جلال الدين فداسها مراراً بدراجته ذات الثلاث عجلات ، وكانت الأم تلومه ، وتعيد تدعيم النبات بعصا أو غصن ، والنخيلة لا تنى تكرر الوقوع تحت العجلات ريثما تكرر الوقوف تسنداً على وسائل الأم . وكان ، بعد السنوات ، أن شبت النخلة ، عالية ، قويمة ، مخلفة - قرب الأرض - تقوسها القديم .

فى ذلك الليل الصافى ، كانت الأم وحيدة ، تسند نظراتها على نخيلتها الناجية ، لحظة تلو لحظة ، وتتعزى .

19 نوفمبر 1988

الميلاد الشاهق

الضحى هو ما يضجر حياتي ، كانت تتشكى لطبيبها ، وهى بصحبة أبيها ، وطبيب العائلة البارع ، المعتزل ، كبير السن هذا ، لا يتعجل ترضّيتها ، وإنما ، بإسلوبه ، يدعها تستمرىء استدارجه لها لأن تكرر شكواها بتعابير أخرى : الضحى يدوّخني . يمتصني . إنه يخلف رائحة خانقة لعجين يتخمّر فى فساتيني .

كانت تزور طبيبها ، كل أسبوعين تقريباً ، فيما بعد مواعيد مدرستها ، مستغنيةً عن صحبة الأب فى أكثر الأحوال ، ومرتديةً الزى الرسمي لطالبات المدارس الثانوية ، ومفركشةً ، كعادتها ، شعرها الحامى والمجعّد نوعاً على جبينها وحاجبيها ، واصفةً لحضرته ، فى كل مرة ، شكاياتها المبتكرة من تعسفات الطبيعة ضد جسدها ونفسها ، ومتوسلةً فى ذلك مفردات القرن التاسع عشر الأدبية . وكان ، هو ، بصوته المغوى ، الرخيم ، يمازحها ويعزّيها دون تكرمٍ منه بالتورط فى حسم آلامها ، ثم يستبقيها فى غرفة استقبال عيادته العتيقة ، المتربة ،

وينهض إلى عتمة معمله ليعد لها عقاقيره المضادة لإيعازات الضحى ، وتحرشات الربيع ، وعموم الارتباكات الليلية . وعبر ردهة معمله ، استحسن دائمًا ألا يفوّت فرصة محادثتها عن بعد ، ملتمسًا منها أن ترفع صوتها ، ذلك أن نبراتها العالية كانت تُلذّه وتُؤنسه ، وحال انتهائه ، كانت يقدم لها زجاجاته باحترامٍ مبالغ فيه ، رغم أنه هو ذاته كان الشخص الذى ، قبل سبعة عشر عامًا ، قام بسحبها من رحم أمها ، ووضْعِها فى الحياة .

* * *

إلحاحات غامضة هى التى هيأت خديجة لتفتدى الأوقات السرية التى كان بوسعها فيها الامتثال لمتعة متابعة نمو نهديها وازدهار بطنها واستنشاق العبير المفرد الصادر من أعماق جلدها ؛ فكانت ، بدلاً من ذلك ، تفرض على نفسها أوقاتاً طويلة تمضيها فى تمرينات غير معقولة تساعدها وتحملها على التذكر ، مؤملة أنها ذات مرة ستتاح لها استعادة اللحظة التى كانت معلقةً فيها فى الهواء الدافئ بجسدها الوردى ، حيث قدماها بين أصابع يده اليسرى ، ورأسها مدلاة ، وعيناها مقفلتان ، وظهرها يتلقى خبطات من اليد اليمنى ، بينما بطنها قد فقدت للتو اتصالها برحم الأم ، وفى زياراتها له ، بعيادته ، لم تكن خديجة تملك مقاومة تسلُّط نظراتها على يده التى أدت الخبطات على ظهرها قبل أن

تطلق الصرخة الأولى لحياتها . كانت خديجة تديم النظر إلى اليد اليمنى التى لاتزال - كما لو أن هذا أمر خارقٌ - عائشةً ، حيةً ، فى مكانها . لم تكن يده اليسرى تعنيها ، ولم تنشغل إطلاقاً بها .

دكتور عوض كان هو من لفت نظر خديجة إلى إستحقاق الأعمال الأدبية للاهتمام . وعلى مدى السنوات الأربع الأخيرة أوجز لها معارفه الأدبية كيفما كانت تتبدى له ، غير آبه باختلاط التفاصيل فيما كان يسرده ، وكان يقرضها - آنئذٍ - من مكتبته الخاصة ، مقتنيات شبابه النفيسة ؛ الروايات الممهورة بتوقيعاته على الصفحة الأولى دائماً والتى لاتنى صفحاتها تطلق شذى الورق المتَكسّر القديم ، شذى السكر المنهار ، وهى تعيد قراءة مالا يحصى من الصفحات التى قُرئت منذ نصف قرن وُطويت نهائيًا ، منساقة إلى الهوامش التى زخرت بهواجس طبيبها وخواطره ومقتطفاته وجهاداته المكتوبة والمعمولة بأقلام الرصاص والكوبيا ، وباتت خديجة تسعى إلى لقيات هوامشها لتترصد وتنتهك المكنونات ، تلك التى كانت توعز إليها - ليس فقط بانبعاث زمنٍ وانثياله نحو جهتَه الأخرى ، المستحيلة ؛ تقهقره المسترسل والمنساب - وإنما بدا لها وكأنه الوسيلة التى ستوافيها ، وستضعها على نحوٍ ما فى لحظتها الفريدة ، المرتجاة : اللحظة الأولى لحياتها .

وفى الليلة ، ومن وسط كتاب ، رواية الأطلنطيد لبيير بنوا ، التقطت خديجة كيساً صغيراً من الحرير الأصفر المضغوط فى مكانه منذ ستين سنة ، وبداخله ورقة مطوية فى مثلثات ، على مثال الحجاب ، وقرأت خديجة : « ... عندما يظل المرء يتذكر ويتذكر ، فإنه يتذكر فى الآخر ماحدث قبل أن يأتى إلى العالم ... » ، كلمات ناتاشا ، أميرة تولستوى .

كانت رسالة ، مكتوبة بخط أنثوى ممتلئ ، وبتمهل لايزال واضحاً ، ومعبأة بما هو أكثر من كلماتها ، ومنتهية بتوقيع صغير ضائع ، مسبوق بعبارة صارمة : المُخلصة إلى الأبد ..

فى الليلة ، بدت العبارة لخديجة باهظة ، ومنتقاة ، ومرعبة .

استولت خديجة على الرسالة المهجورة ، وأعادتها إلى جعبتها الحريرية ثم دستها تحت وسادتها ، ونامت . وفى أول الصباح مدت يدها وسحبتها وقرأتها من جديد .

وفيما بعد مواعيد مدرستها ، وفى عيادته وبدون كلمات ، كانت يدها الشاحبه تعيد إليه اللقية ، بينما نظراتها تسيل وتسيل على يده اليمنى التى تعيد التقاط الرسالة من بين أصابعها ، بدا متشككاً فى انتساب الرسالة إلى ذكريات عمره ، وتمتم :

- لعلنى اشتريت الكتاب مستعملاً ، ومشتملاً ...

وقاطعته خديجة ، بكياسة ، وعذوبة :

- دكتور ، أين يمكننى أن أجد صاحبتك ؟ !

أجابها فى رفق وتؤدة :

- ماتت .

- وناتاشا ، دكتور ؟ !

- ماتت ، كذلك .

كانت الشمس دافئة وطازجة ، وخديجة تحس بكونها ممتلئة بما هو أكثر من الروح ، بكونها متحكمة ومحتشدة بما يمكن أن تقوله أو بالأحرى بما يمكن أن تخبر به ، إلا أنها كانت تشعر كذلك بأنها ممنوعة من أى إفصاح ، وأنها ملتزمة بفيض سكون ، بكل سكون .

امتصت خديجة حالتها ، وأطفأت نفسها ، وقالت بصوت قاهر :

- حضرتك لم ترد على أسئلتى !

بالفعل ، ما كان الكتاب كتابه ، ذلك أن خديجة لو نظرت إلى صفحته الأولى لما وجدت توقيعه الحصيف ، المعتاد ، عليها . ولعله يتذكر لحظة عثر - هو - على كيس الحرير الأصفر ، وفض الرسالة ، فاشتملته معرفة بأنها إنما قُدت من أجله ، كُتبت وحُررت له ، ووُجهت

إليـه شخصيًا ، تمامًا ، وقد تلقاها بنقاء وإلهام وسطوع ، وكأنه انتظرها ، بل وكأنه بحث عنها واستنفرها .

كانت صاحبتها مجهولة بتمامٍ وكمالٍ بالنسبة إليه ، ولكنها بدت ملء عينيه وجمجمته ورهط ذاكراته فى لحظة الفض وما تلاها . وحُقَّ له الاعتقاد أن كاتبة الرسالة إنما كان محتومًا أن تحب شطره هو ، وأن تلتئم به هو ، وأن تخاطره هو ، لولا غيابه المستقر الساكن عن سالف حياتها ومجالها ، فكان أن تلقي سائر حبها وتواردداتها ورسائلها وعتماتها شخص آخر ، وأن صدفةً أو رجةً قد استقدمتها أو استوقفته للقاء بزمنين ، أو بالأدق بشبيهيّ زمن ، واعتبر أن نفس الصدفة ، أو ، ربما ، نصفها الآخر ، التوأم ، هى التى حالت دونه وانتزاع الكيس والرسالة من وسط صفحات الكتاب قبل إعارته إلى الفتاة ، خديجة ، وهو المهووس ، بطبيعته ، بإخلاء كتبه من متعلقاته الشخصية قبل إعطائها لأيٍّ كان . واحتسب ، بيقين ، أن وصول الرسالة إلى يد خديجة يساوى وصولها - فيما قبل - إلى يديه ، وكأنه شأنٌ يسوقه قبس من رشد الحياة وانتباهها ومغزاها من أجل انتهاء أو اكتمال معلوم .

همست الفتاة ، كأنها تصالحه . كأنها تتواطأ معه :

- هذه الحروف ، هذه الرسالة من أمي !

* * *

فى نفس اللحظة التى نطقت فيها خديجة حكمها بأن الحروف حروف أمها ، والرسالة رسالة أمها ؛ وقر لديها يقين ثقيل بأن الحروف حروفها هي ، والرسالة رسالتها هي ، وحست بروحها مشوشة إلى الحد الذى تماهى لها فيه أنها هى ذاتها أمها .

وبدا لها ما كانت تترجاه ؛ إنما بصورة معكوسة ومرتدة .

كانت خديجة تزر عينيها ،

وتتذكر نفسها ،

راسخة وسط آلام الطلق والولادة ،

وهى تلد خديجة .

7 أكتوبر 1992

حواس الحريقة

بدا القطار وهو يشق طريقه في الليلة ، برهافة ، كأنه آية من سرمد رحماني. كان عائدا من رمال الاسكندرية فى القطار القشاش ، الرتيب ، وخطر له أن يطرد الملل بأن يكتب في كل محطة كلمة واحدة في ورقته ، شرع يسلى نفسه بلعبته ، ويخبىء يده فى كل مرة داخل جيب الحقيبة ويكتب كلمة إلى أن شردت أفكاره وغص بلعبته .

* * *

هس الليل ، وقطار الدرجة الثالثة يسرى به بين الحقول والقرى فى قلب عتمة فريدة ، وهو إلى الحقول يرنو من شباك إلى جواره . أحس الحقول طرية ومشمولة بسلام جليل ، وانتبه لكون الحقول تطلبه ، وأنها تكاد تنتزعه من مقعده وتبدله . اشتهى آنئذ نور القمر ، فأشرق القمر وغمر الحقول والبلاد الصغيرة بنور قديم ، ممتلىء ، وكامل . رغب أن يسقط النور على صدره ، ولمح حقيبته ملقاة إلى جواره وجلدتها السودا ء المتشققة تعكس هذا النور بخفوت .

كان يعرف أن النور يسقط ثقيلاً على عنقه وصدره ، ولم يشأ أن ينظر أو أن يمد يده ليتحسس .

وباتت عيناه مفتوحتين على الحقول ، ليدرك أنه لو أصر على إبصار أيائلها وتماسيحها وفهودها الأولى ، التي كانت ، لرآها .

* * *

ترفق قلبه به ، وأدرك أن الليلة ليلة كبيرة ، لعله صادف مثلها من قبل أو هيأ الخيال له ذلك ، إلا أنه كان يفهم بوسيلة ما أنه في مثل تلك اللحظات يغشاه الشخص الذى سيصيره ، هو ذاته ، بعد زمن ، وما كان يعتنى بالنظر في التحولات التي تطرأ على حالته ومزاجه وكيانه قبل أن يعود إلى ما كان عليه . قدر ، مرة ، أن يصف الأمر « عندما كنت صغيراً عرفت ما ستؤول إليه نفسى فى الشيخوخة . لقد سيق إلىّ الشيخ الذى سأكونه مرة ومرات » ، وكتب كذلك « صدمنى أن أعرف ضمناً أنى سأحيا طويلاً . كنت آمل ، آنئذ ، نيل حياة قصيرة وعارمة». كانت « بادرة » قد لفتت انتباهه مرة إلى القطارات « أنا فى القطارات لا أعود أنا ، أشعر أنى أترعرع على قعقعة هذ الحديد » . وهاهو عائد من الاسكندرية ذاتها ، ربما فى نفس القطار الذى ركبته " بادرة " بعدما ودعته لآخر مرة خارج أسوار المحطة .

حين أنهى لعبته لم يكن قد كتب فى ورقته سوى أسماء أشخاص ضائعين . وترفق قلبه به .

* * *

لمّـا أشرق القمر على دنيا حقوله اعتراه الوجل . وبدا له أن ما يشعر به ويراه ليس إلا تهيؤات روحه المجهدة وتواطؤاتها ، ولكنه مع ذلك بقى مستطيعاً أن يرى قرص القمر معلقاً فى السماء ومشعاً على الأجساد من حوله . كانت طائرة تعبر أجواء السماء ، تضىء وتطفىء أضواءها الخضراء والحمراء على الجناحين ، لم يخطر له من قبل أن الطائرات تحمل بشراً يسافرون . لطالما شاهد الطائرات فى طفولته وظن أنها تطير لمجرد ذرع المسافات ، ولكنه يستطيع الآن أن يفهم الطائرة والمسافرين والأفكار .

أخرج من حقيبته أحد الكتب التى اشتراها من بائع النبى دانيال ، وتذكر بالطبع الرجل الأبيض ، العجوز جداً ، بوسامته المتهدمة الذى التقاه فى الترام والذى ظل يبحلق فيه ثم نزل وراءه فى محطة إبراهيم باشا واستوقفه وقال له بلا مقدمات" كن فطناً يابنى ، وسافر" ، لم يفهم أى سفر يقصده العجوز ، ولأنه كان عائداً بالفعل فلم يستحسن أن يستفسر أو أن يستزيد ، وحين توقف فى شارع النبى دانيال للتقليب فى الكتب القديمة لمح الرجل العجوز يقترب منه ثانية ليقول له وكأنه يستأنف الحديث « لا تغتر بالكتب ، فغايتك ليست من هذا الطريق » ، لم يرد ، ولم يعتبر نفسه مقصوداً بالكلام ، واشترى كتابين ، وقبل أن ينصرف ملأ عينيه من العجوز وهمس له بالألمانية « مسافر » . كان

الرجل العجوز الأبيض ذو النمش والذى يبدو كواحدٍ من بقايا يونانىّ الاسكندرية يكاد يزجره وهو يقول له « لا تتلكأ » .

عندما مرت الطائرة واتاه طيف ذلك العجوز .

* * *

طلع النهار . كان نائماً فى سريره ، جسده يوجعه ، وروحه ثقيلة ومعتمة . ساوره إدراك بأن الليالى الجميلةِ تردفها نهارات فاترة . وانتابه شعور بالإثم تجاه ليلة الأمس وقمرها وحقولها ، وتوجس أن ثمة قصاصاً سوف يطاله .

عاد إلى النوم وفى الحلم رأى الطائرة تقع وتنفجر ، ومن حطامها يخرج الرجل السكندرى الأبيض بنمشه وغموضه ، ويقبل عليه ، ويحدجه بعين مطمئنة :

- كما ترى فإننى نجوت .

لم يقل له " وكيف أدركت ذلك " لأن العجوز المطمئن كان سيجيبه « إننى أشعر بنجاتى » وعندما نظرا باتجاه حطام الطائرة شاهدا فتاة تخرج منها وتسير نحوهما عارية ، وحين بانت كان جسدها محترقًا إلا وجهها وشعرها وعنقها .

كانت ترتعد من الظمأ والألم ، فتركهما العجوز السكندرى وهو يشوّح له : - هى ستعلمك ، هى .

اقتربت ، فبدا فمها حلواً متفجراً بالشهوات . قالت له :

- ضمدني .

فقبلها في فمها ، وقبلته ، وتشمم حريقتها . تطلع في عينيها وملامح وجهها ، وبدا أنه يتذكر شيئاً ما عنها .

عندئذ صحا من الحلم ومن النوم فيما لم يعد لرائحة اللحم المحترق وجود يُذكر .

* * *

دخل ليل ثانٍ ، فصعد السلم إلى سطح البيت ويده تزحف على الدرابزين المترب ، ووقف في البقعة التي مات عندها أبوه بعدما أصابه حجر أسود في جبهته فأرداه على الفور دون أن يستدل أحد على الجهة التي انهمر منها الحجر . خطر له أن الحجر إنما جاء من فضاء خارجي كي يلمس أباه تلك اللمسة الهائلة الساحقة فحسب . لقد ضاع الحجر واختلط ميته بالموتى الآخرين مثلما اختلط هو بالعائشين ، ولو أن هنا من يخيّره ، في لحظته هذه ، بين رؤية الأب ، ورؤية الحجر لشغفه الحجر. كانت خواطره تشقّه وتقويه وتنهضه ، فعاد يسائل نفسه عن الفتاة المحترقة التي عانقها وقبّلها قبل قليل ، أمن الجدوى ألا يكون لها أي وجود ؟ ولو أنه ضاجعها في الحلم ثم ضاجعها إنسان آخر في غير الحلم ألن يتوجد له تذكار في وليدها إن ولدت !

كانت قد توسلت إليه بينما هو يصحو من نومه :

- لا تنسنى . اسمى « لالى » ، «لالى» ، لا تنس اسمى !

أسلوبها ونبراتها كانا فريدين ، لا يجيئان من أية امرأة عرفها ، لعله لا يستطيع الإسهاب فى توكيد ذلك . إلا أنه امتثل لمشيئتها فى ذلك الليل الرطيب ، فناداها وردد اسمها بصوت مسموع يطفر بحنانه وإيمانه بجدوى وصيتها وتلبيته الورعة لها ، وتذكر أن كمسارى ترام الاسكندرية أعطاه تذكرتين بدلاً من واحدة ، واحتجز بالطبع ثمن تذكرتين دون أن يبدو عليه أنه أخطأ فى ثمة شئ ، وحين اكتشف - هو - الخطأ تقبله رغم وقوفه منفرداً فى مؤخرة العربة .

فى أغوار ليلته تلك صار لديه مايوعز إلى سريرته أن « لالى » بضماداتها أو بدونها كانت إلى جواره الحميم ، فى مؤخرة العربة السكندرية ، دافئة وراسخة ومرئية لسواه .

* * *

أشرق القمر اللبنى فياضاً من جديد ، فامتلأت بالشوق روحه واشرأبت ، وهب جسده مشهراً رهيفاً وسط الصفير النافذ لصراصير الليل .

رائحة نعناع أخضر تضوعت.ثم خمدت فى الليل الرطيب .

لم يتغير شئ .

عساه تفهم فى الآخر أن «لالى» المفعمة بحريقتها لا تقدر على المجئ إليه والحط على لحمه ودمه . لعله تفكر فى أنه لا يكاد يغفر للوجوه الدميمة دمامتها ، وأن وجوه النساء الصبوحة على الأجساد الشائهة توقظه وتخلبه حتى لكأن روحه تسعى فى إثر أجسادهن العسيرة والناقصة والمنبوذة وتتلقفهن كعطايا فى مصاف المعجزات .

وفيما هو مشدوه إلى منامه ، انقذف حجر خدش ذراعه وسقط غير بعيد . حجر رمادى ، ناشف ، مترع بتجاويف هوائية صغيرة صيّرته اسفنجياً وخفيفاً ، بدا مفهوماً لديه أن الحجر ما انقذف ليصرعه إنما ليخدشه فحسب ، وحين التقط الحجر وتفحصه بين يديه فى نور القمر انتبه إلى ما كان يحدسه ويعرفه عن طول عمره ، عندئذ جرى لسانه بما كان قد سمعه من العجوز السكندرى ، فتمتم وهو يرمق الحجر :

– كما ترى فإننى نجوت !

وتحاشى مصارحة نفسه بأن الحجر الذى ناله وأوجع ذراعه هو حجر سوّته حريقة أو حرائق مجهولة غابرة ، وأنه بمثابة العطية أو القصاص . عندما غلبه النعاس ، بقى الحجر الصغير ساكناً إلى جواره ، على فراشه ، له ماللحرائق من فتنة ، ومؤتلقاً فى حضورٍ ضافٍ .

وغابت « لالى» .

لم تجئه حتى لتشكو له اتساخ ضماداتها .

وفى نعاسه ، بدا له أن جمالها الحار المتضاعف يحزنه ويمضه وكأنه يغار ، كأنه متروك . بل كأنما جمالها مسلوب منه . وهو لاينى يعرف أن « لالى » محض طيف أتاه فى حلم ، إلا أنه حسم الأمر فى قلبه : طالما أمكن وجودها فى الحلم فهى تغذى هذا الوجود وتضاهيه من منتهى حقيقيتها .

* * *

فى النهار ، كان القطار يعود به إلى الاسكندرية ، ومن النافذة تراءت له الحقول متحلية بقوة الحقول العادية ، وأحسها تعصاه وتجافيه دون أن تنكره أو تتخلى عنه أو تحرمه . رغب فى استخراج الحجر من حقيبته والنظر إليه ، لكنه تراجع تحسبًا من فضول الراكب المجاور . حملته أفكاره بشوق إلى «لالى» وتجلت له هيئتها حلوة على ظهر المقعد أمامه بينما صوتها يبثه : أنا سأعلمك ، أنا . تشبب قلبه ولم يقو على مغالبة رغبته وتلهفه لتحسس الحجر يفزعه هاجس ضياعه أو تلاشيه ، فأدخل يده فى الحقيبة ولمس تجعيداته ودفئه وظل ممسكاً به حتى فاضت أنامله بالعرق فتشممها خلسة وقد أفدحتها رائحة النعناع الأخضر متضوعة وكأنها أول الرائحة أو كأنها لم تُضمَر فى باله قط .

على شاطئ البحر هجعت روحه إلى سكون الحجر ، وهالته الطمأنينة التى تغمره وتقر عينيه ، فهمس لنفسه : لازلت شابًا فتيًا ولا أريد هذا الآن .

دونما أسف ، بل بتهليلة ومرح وعزم رشيد ، وقبل حلول الظلمة ، ألقى بحجره بعيداً فى مياه البحر الباردة .

فيما هو يتجول بمسراته على رمال شاطئه أنست عيناه طائرة تطفئ وتضئ أضواءها الخضراء والحمراء فى الأفق الناصع ، وتهتدى .

11 يناير 1994

الفهرس

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الإدارة

مهندس / إبراهيم السيد البهنساوى

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

٦١٥٤ س ١٩٩٤ - ١٥٠٠

● تتكون المجموعة من عشر قصص حرص الكاتب على إثبات تواريخ كتابتها حتى يجعلها سجلا لرحلته مع القصة .

وكأن ولعه بلعبة الزمن لم يقتصر على بنية السرد . وإنما امتد إلى عملية التأريخ للقصص . وكأن القاص يريد لقارئه أن يدرك أن تحولات الزمن لا تؤثر على مصير الشخصيات التى يتناولها فحسب ، ولكنها تتناول سيرة الكتابة ذاتها . فالترتيب التاريخى لقصص المجموعة العشر التى استغرقت كتابتها عشرة أعوام يكشف عن طبيعة رحلة الكاتب مع السرد، ومع اللغة ومع مفهوم الزمن ومع تصوره للقصة وللعالم على السواء ، وهى رحلة نضجت فيها بنية القصة عنده بالتدريج كما نضجت معها اللغة .



طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية